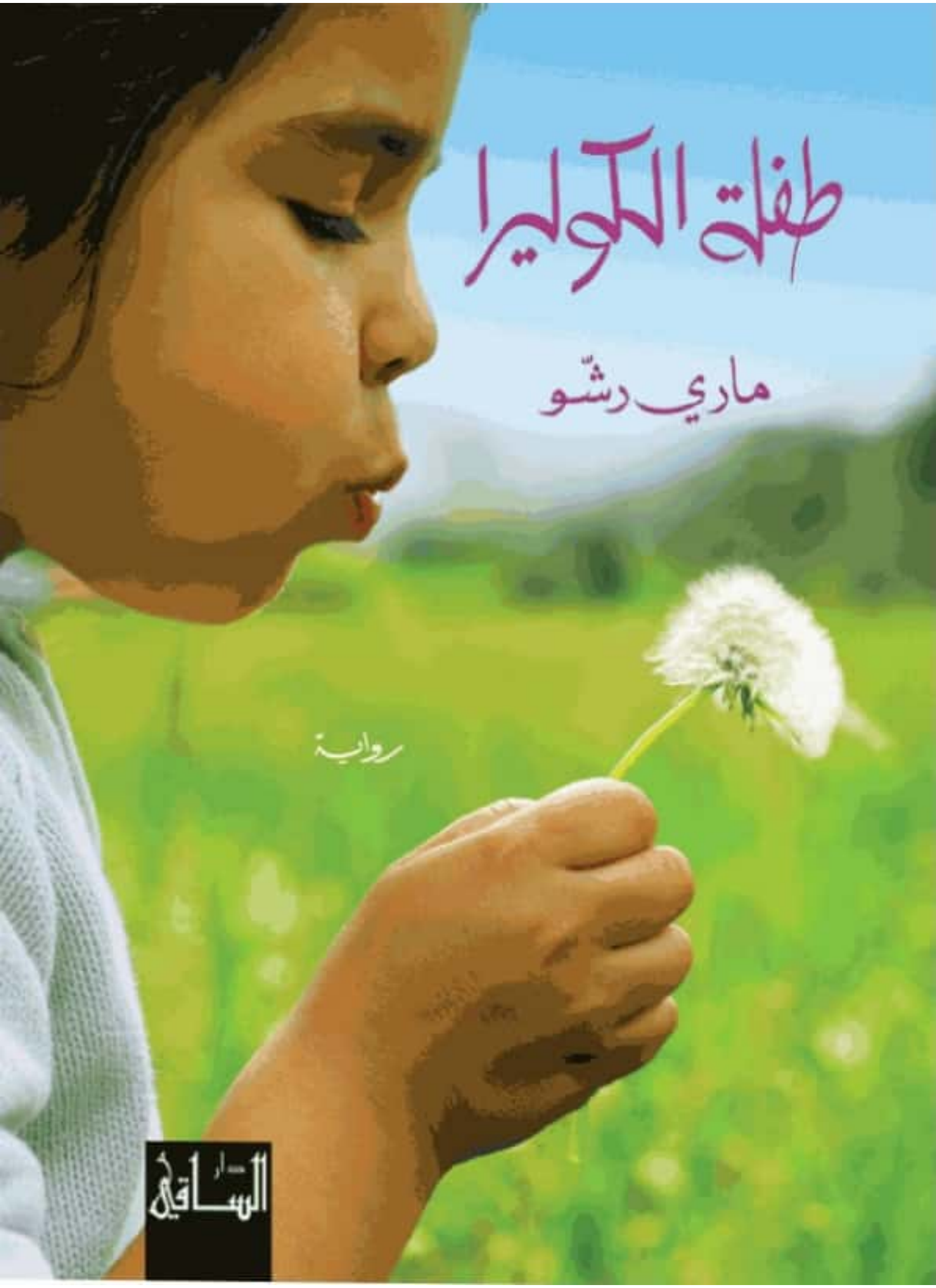
طفلة الكوليرا
ماري رشّو
رواية
دار الساقي

ماري رشّو

طفلة الكوليرا

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© ماري رشّو، 2011،2008

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الورقية الأولى، 2008
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-053-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.:
5342/113 . الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

1

حين أدركتُ أن حكايات جدّتي لم تكن من الخيال، كنت في العاشرة من عمري، وكانت جدّتي قد فارقت الحياة.

لم تشغلني آنذاك مراسم الحزن عن شعوري بالخسارة والفقدان، وهو أمر لم أدرك معناه الحقيقي، فقد تعود جدّتي، قد يكون موتها تتمّة لحكايات الأمس التي كنت موقنة أنّها لن تنتهي، وقد تكون قصّة موتها التي أخبرني بها أبي جزءاً من تاريخ بقي في ذاكرتها قيد التحقيق، فالموت في حكاياها أقرب إلى الخيال، قصص لا يصدّقها عقل، ولذا كنت قادرة بما يسمح به عمري آنذاك على تجسيد ما تحكيه بطريقة بسيطة، وكم هُيّئ لي أنّ الطرف الآخر الذي يمارس صنوف القهر والتعذيب لا يُشبهنا نحن البشر، هم كائنات أخرى، لا علاقة لنا بها، وربّما كانوا من فضاء آخر، كما يحدث ونشاهده في الأفلام الكرتونية، ويصبح الخط الفاصل بين الخير والشرّ هو البصر والسمع وما يقال.

لكنّ جدتي رحلت، وبقيت أنتظر عودتها، اعتقدت أنّ أبي يُخفي أمراً كما في الحكايات، أو أنّه لا يدرك أين ذهبت جدّتي، فالموت عندها رحلة طويلة، موت متكرّر مع مرور الدقائق والثواني، تعرفه جيّداً، عاشته وشاهدته بكلّ أنواعه، وحين تتحدّث عنه يصبح في قديم الزمان، فأحببتُ كلَّ حكاياها، التي كنت أغفو على

تفاصيلها، ولا أدري الآن، هل تعمّدت جدّتي التسلّل إلى عقلي دون أن تلامس قلبي ومشاعري؟ هل كانت تتقصّد سرد الأحداث بعيداً عن التأسّف والشكوى، أم أرادت نقل أحزانها بطريقة جدّية كي لا تترك للشك مكاناً؟

ما سمعته من جدّتي وأنا طفلة أعيشه الآن بواقعه الذي كان، تحوّل ما روته لي إلى تاريخ مليء بالقهر والظلم والأحزان. أسقط بين التفاصيل منهكة. أناديها كي أعانقها، كي أحبّها، كي أقول لها إنّها لم تغادرني، وإنّني أسمعها وأُنصت إليها، وأستعيد قصصها، التي كانت تسلب عقلي، فأرى الأشجار تُقلع والجذور تُحرق ويتحوّل كلّ شيء إلى جمرات ونار، غير أنّ الرماد كان يُذرى في الطرقات البعيدة.

كان ذلك بالنسبة إليّ صوراً متحرّكة لا أكثر، وكنت في جلسات كثيرة أطالبها باستعادة قصّة ما. في الحقيقة كانت ذاكرتها التي لا تخطئ تدهشني، فتروي أحداثاً تصفها بما قبل «سفر برلك» تلك الفترة التي لها ملامح النبوءة لما سيجري في تلك الأيام أو بعدها، وقد زرعت هذه الكلمة في ذاكرتي كنقطة فاصلة بين ما قبل وما بعد لا أكثر. غير أنّني لم أفكّر في أنّ ما كانت تصفه من أحداث سيتصاعد ذات يوم ليكون حقيقة، وأنّ ما يتعرّض له هؤلاء البشر هو بداية لمرحلة النهاية، التي اتّسمت بأقسى أنواع الاضطهاد، في وقت لم تكن تلك الأحداث تشكّل لي قضيّة ما، وربّما لم يكن عقلي

يستوعب معنى أن يُظلم إنسان لمجرّد اختلاف في اسمه أو عقيدته، وقد يكون هذا بسبب وجودي في بلد ساهم في حماية من نجا من الموت، إثر حملات التهجير والإبادة، أو لأنّنا من الأقلّيات التي تنتمي إلى هذا البلد، ونتساوى مع الأكثرية في كلّ ظروف الحياة.

يوم ماتت جدّتي خسرتُ أحلامي الطفولية، خسرت اللجوء إلى أحضانها وانتظار أحاديثها التي تسكبها دون أن أدري في رأسي الصغير. أرى ذلك الآن صرخة أرادت جدّتي ألاّ تموت، وأن تبقى في الأذهان، كنداء ليقظة إنسانية مقبلة، وللتذكير بأن البشر متساوون في ساعة الخلق والأبدية. أستنتج ذلك كلّما استعدت حكاياها التي لم توقظ عندي الرغبة في البكاء أو النحيب، أو مشاعر النقمة أو الانتقام، أو ما يدعونه بالثأر.

لكنّني بكيت وأنا أشبّ يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى. بكيت وأنا أستعيد قصصها. كان باستطاعتي رؤيتها بخوفها وضعفها، بقوّتها وهُزالها، بجنونها واستسلامها، بجوعها وعطشها، بحزنها وألمها، فأتعلّق بثوبها، أمدّ أصابعي نحو جديلتها، ألامس خصرها وأبكي معها، وأمدّ بصري أبحث عن آخر الطريق، حيث نتّجه إلى ما لا نهاية، فكلّ الأمور متساوية ما دمنا نختلف عن البشر، وتختلف حياتنا وطُرق موتنا.

تعلّمت من جدّتي الكثير من الأمور، عرفت هذا حين شببت. كان باستطاعتي تذكّر أقاربها وأصدقائها، ماذا يعملون وكيف يتحرّكون. أكثرهم كانوا من الأثرياء،

ومنهم التاجر والعامل والفلاّح. ما عرفته أيضاً أنّ العلم كان هاجسهم، وأنّ الخوف كان مستوطناً بهم، وأنّهم لم يفكّروا في الهجرة لأنّهم هنا ولِدوا، كما ولد أجدادهم قبل آلاف السنين، وهنا سيعيشون كما عاش أجدادهم، وعليهم الاستمرار في مختلف الظروف، لأنّهم لن يتخلّوا عن بلادهم مهما كلّف الأمر.

تعلّمت من جدّتي أيضاً كيف يكون الصبر وكيف هو التحمّل، كيف هو الآتي وكيف هو الفرح، كيف يمضي الحزن وكيف يحيا الأمل. وأكثر ما كان عليّ فعله هو العودة إلى التاريخ، لأرى كيف ولماذا؟ من أجل جدّتي تعلّمت القراءة، تعلّمت كيف أبحث وأنقّب. لم أكن حزينة وأنا أتعرّف إلى حِقب من الماضي، ربّما كنت مذهولة أو غاضبة، ربّما صرخت أو اتّهمت، نفيت أو استنكرت أو كذّبت، ربّما مررت بحالات من قهر أو جنون، ربّما ثرت أو ضربت أو بصقت، ولكن في كلّ الأحوال بقيت صورة جدّتي في تمام اتّزانها، تسرد حكاياها بكلّ ثقة، علّني لا أنسى، كي أتذكّر - دون ألم - أنّ ما حدث كان بفعل الجهل، لا بفعل الحق، وأنّ وراء تلك الحملات أمراً له علاقة بالشرّ لا بالخير، فأتى تحت شعارات مختلفة ومتخفيّة وراء مُجمل الأحداث.

لم يسمّني أبي آرشا على اسم جدّتي أمّه. كانت جدّتي تقول: اسم لورا أفضل من اسمها، فقد لا يسبّب مشكلة ذات يوم، فأحبّ اسمي الذي سيحميني ممّا في ذاكرة التاريخ، أو في ذاكرة جدّتي، فأستعيد في

لحظات صفاء بعض ما أرادت إيصاله إليّ، تلك القصص التي لا تبرح ذاكرتي، فأُعجب بتلك الأمّ التي حوّلت ليراتها الذهبية إلى أزرار محبوكة بقطع قماش، وعلّقتها على أطراف الثوب، لتستعين بتلك الأزرار على شراء الضمائر التي كلّفت سوقها إلى خارج البلاد، وكان باستطاعتي آنذاك تقمّص شخصية الأمّ لأجد نفسي أحوك تلك القطع، أو أنزعها عند الحاجة، وأحياناً أُصبح الابنة التي أنهكها التعب على طريق النهر، فباعتها الأمّ بقطعة من ذهب، أو أهدتها إلى إحدى الأسر لتقيها شرّ الجوع والعطش، أو لإنقاذها من موت محتم.

تبتسم جدّتي لي، تقول إنّني حفيدة ممتازة، تمسح جبيني وتحكي لي قصّة الشابّ، الذي حمل آخر صورة له مع أمّه، إلى ما بعد سفر برلك بسنوات. كانت ذكرى موتها لا تفارق ذاكرته، وتصرّ جدّتي على أنّ ذاكرته قد قتلته، فقد قضى سنوات يحاول أن يعيد تشكيل تلك الصورة، وتحويلها إلى لوحة، لكنّ مساعيه باءت بالفشل:

- هل تعلمين يا لورا ماذا حدث بعد ذلك؟

- قولي يا جدّتي. ماذا حدث؟

- قتل نفسه.

- هل كان مجنوناً يا جدّتي؟

تضحك جدّتي إلى أن تطفر دمعتها، فأعانقها وأطالبها بالمزيد، وأصطنع التذكّر قائلة:

- ماذا حدث لطفلة الكوليرا؟

- لا أحد يعرف.

أدرك الآن أن لا أحد يعرف حقّاً. كانت القافلة تغادر مدينة القيصرية، بناء على أوامر الدولة، وكان عليهم الاتجاه إلى ساحة معيّنة، بعد وعود بأنّ ما يحدث هو إجراء موقّت، وأنّ العودة إلى بيوتهم قريبة. تضحك جدّتي، لقد صدّقتهم سيفان فجمعت حوائجها وممتلكاتها، ووضعتها في غرفة من غرف البيت الكبير، أمام استهزاء زوجها، الذي سيطر عليه اعتقاد بأنّ ما يحدث هو دليل على أنّها آخر أيامهم في هذا البلد.

- من هي سيفان يا جدّتي؟

- امرأة ثريّة، لكنّها ماتت جوعاً وعطشاً.

- أف يا جدّتي. احكي عن طفلة الكوليرا.

ولِدت طفلة الكوليرا خلال الأسابيع الأولى للتهجير، ولأنّ أمّها كانت مريضة بهذا المرض المستعصي، نصحوها بإرضاعها كي يكون مصيرهما واحداً، لكنّ الأمّ ماتت وبقيت الطفلة.

- وماذا حدث لها؟

- كما حدث لكثيرين ممّن بقوا على قيد الحياة.

- أين هي الآن؟

تبتسم جدّتي. مسحت فوق رأسي وهي تتمتم:

- لا أدري يا لورا.

كنت بيني وبين نفسي أحوك القصص لهذه الطفلة، فأراها قد شبّت وتعلّمت وتبوّأت مراكز عالية، فتسحبني جدّتي من شرودي قائلة:

- ما بكِ يا لورا؟

- ما اسمها يا جدتي؟

- لم يسجّلوها يوم الترحيل، لأنّها مولودة حديثاً.

وكنت بيني وبين نفسي أيضاً أطلق عليها أكثر من اسم، وحين ضبطتني جدّتي قالت:

- لم تخطئي يا لورا، كلّ هذه الأسماء حدث لها ما حدث لطفلة الكوليرا.

كانت تلك القصص تحملني على جناح الخيال دون وجع أو ألم، أو هكذا أرادت جدّتي التي جفّت دمعتها قبل عقود من الزمن. ومع أن ما روته لي انحصرت أحداثه بما دعته حرب الإبادة، لم أفهم أبعاد تلك الكلمة، ولم أعرف أنّ قسماً كبيراً من أقاربي أُبيدوا في تلك المرحلة، لكنّني كنت ببساطة أكرّر عليها السؤال قائلة:

- ما معنى الإبادة يا جدّتي؟

تبتسم، وتصفها كلّ مرّة بطريقة.

قبل أن تغادرنا، وصفتها بأيّام الحصاد. وضع الأرمن آنذاك في ما يُسمّى «الجُزن» أي على البيدر. حدث ذلك بعد أن اجتثّت السنابل التي اتّجهت بأعناقها نحو السماء، لتدوسها آلة غاصبة، كما يحدث على التلفاز، حيث يأتي الرجل الآليّ، منتعلاً حذاء حديدياً، ليدوس الخير والجمال.

- هل أنت حزينة يا لورا؟

- لا. كنت أرى الحقل وهو يموت. لا أحبّ هذا الرجل يا جدّتي.

أعرف أنّني من أسرة أرمنية، سكن أجدادها في ما يُسمّى بلاد الأناضول منذ آلاف السنين، وأنّهم عاشوا مع بقيّة الشعوب، في وئام وسلام على مدى العصور، واستمرّ ذلك إلى ما بعد مجيء الإسلام، حيث عاش مسيحيّو المنطقة مع المسلمين على قدر كبير من الوفاق. كان المسلم حسب الدعوة الإسلامية يحترم أهل الكتاب، ومنهم الأرمنيّ الذي هو مسيحيّ في الأصل، ولم تنشأ نزاعات أو خلافات كبيرة خلال تاريخ طويل. حدثت أمور بالطبع لكنّها أحداث فردية لا علاقة لها باختلاف الدين أو العرق، كما يحدث في أكثر المجتمعات، أو إثر حروب لم تخلُ منها منطقة في العالم.

حين أذكر أحاديث جدّتي أدرك أنّها لا تفقهُ في السياسة، وقد أكون قد ورثت عنها هذه الخصلة، وأنا لا أدرك إلى الآن لماذا حدث كلّ ذلك؟ أو لماذا تشتعل الحروب في العالم؟ فأتخبّط بين أرقام وأسماء، وأبحث عن دليل يقنعني بأنّ ما يحدث كان ضرورة للبشرية وللإنسانية، فيخيب مسعاي، ولا أفقه معنى أن يكون للحرب رقم، كالأولى أو غيرها، أو أن ترتبط بمكان كحرب البلقان، أو بدول وأُمم وصفات كالحلفاء، وأغوص بين واقعة وأخرى، فما الذي جرى قبل الحرب العالمية الأولى؟ ولماذا حدثت تلك الحرب؟ أو كيف

خرجت الدولة العثمانية من أوروبا واستعادت بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود استقلالها؟ أسئلة متعبة وقاسية وبلا أجوبة، لكنّها لا تبرح الذاكرة، على عكس أبي الذي عاش قنوعاً مستسلماً، لا يفكّر أو يتساءل، ولا يعود إلى الماضي، أو يربط الحاضر بما فات. أبي يُشبه جدّتي بطريقة أخرى، ولا يختلف عن عمّي آفو أو عن كثيرين من الأرمن، الذين رفضوا البحث عن هويّاتهم، وكأنّ الذاكرة التي تربط بينهم، استوطنت خيالَ كلّ منهم، وأبت أن تفارق ذلك الخيال، فأورثتهم الوجع والألم والصمت.

لم يرتح أبي لأسئلتي، بخلاف عمّي الذي تتّسع عيناه إثر كلّ فكرة، ويراقبني كلّما سنحت له الفرص، فأشعر برغبته في المزيد، وأدهش من تعابير وجهه التي تتبدّل بسرعة، أو من تعليقاته التي لا ترابط بينها، غير أنّها تصبّ في تلك البوتقة التي راحت تشغلني يوماً إثر يوم، لأكتشف شيئاً فشيئاً أنّ اهتمامات عمي التي شغلته عن أمور الحياة، لها علاقة بنجاحه في كلّية الطب، وبقراءاته المتواصلة، ولم يعقه ضعف جسده والحالة المرضية التي رافقته منذ طفولته، عن المتابعة والاستمرار. كان نهِماً في قراءة التاريخ أو معرفة جغرافية المنطقة، وكنت معجبة به، فأراه كئيباً تارة، ومبتهجاً تارة أخرى، وأكثر ما كان يلفت انتباهي طريقته في سرد ما يريد قوله، ينقلب الجِدّ عنده فجأة إلى مُزاح، خصوصاً حين ترد فكرة الزواج، فهو لن يقوم

بعمل مرعب كهذا، ويعلّق على المسؤوليات المترتّبة على الزواج والتي لا تنتهي، لكنّه سيستقلّ قريباً ويسكن في بيت يليق بطبيب. كنت أحبّ مُزاح عمّي، وأُرجِع نمطَ تفكيره إلى حالته الصحّية، فهو يخاف من متطلّبات الحياة، الزوجة والبيت والأولاد. كان يبدو أكبر من عمره، على عكس أبي الذي يكبره بسنوات، ويبدو أصغر منه سنّاً. كان ينقلب فجأة من حال إلى حال، كأنّه استعار شخصية لا علاقة لها بسابقتها، لأكتشف الجانب الآخر عنده، تلك القدرة على السخرية وعلى الاستخفاف، فتتحوّل تعليقاته حول ما حدث للأرمن إلى مُزاح، ويصف حملة التهجير برحلة استكشاف للمنطقة، والإبادة بأنّها فكرة مُغرضة لا أكثر. على أنّ كلامه لا يدخل في الجدّ إلا حين يتحدّث عن يوم ولادته، فهو لا يزال يعجب كيف حملت به أمه؟ وكيف ولد بعد أشهر التهجير، وكيف لم تُسقط معاناة جدّتي الجنين من أحشائها؟

- اللعنة على الألمان. اللعنة على روسيا.

- ما بك يا آفو؟

- اللعنة على الضعف، إنّه يورث العبودية.

ما زال عمّي يتحدّث بالألغاز، أو يتعمّد ذلك، فيبدو في حالة من النشوة، أو في حالة قصوى من الهذيان، فأحاول ربط كلماته التي تأتيني كإشارة لفكرة أو حدث ما، أو أبحث عن علاقة تربط بين أقواله المتناثرة وبين الحقيقة، فأزداد اندفاعاً وإصراراً، بينما يعلّق أبي. فما

كان يشغلني هو رماد ستهبّ عليه الريح وتذروه إلى غير رجعة، فأتساءل بصوت عالٍ عمّا تعنيه الحرب بين الحلفاء؟ وهل انحازت تركيا إلى ألمانيا حقّاً؟ وهل كان عمّي مُحِقّاً، وهو يصف استغلال ألمانيا لضعف الدولة العثمانية آنذك؟

قال أبي بشيء من الثقة:

- هذا أمر عاديّ، فسيطرة الدولة العثمانية على شمال أفريقيا أخذ بالتقلّص، وانتهت تلك السيطرة حين استولت إيطاليا على ليبيا. ولكي تحدّ الدولة العثمانية من نفوذ روسيا القيصرية وتسلّطها الذي راح يتصاعد، فكّرت بذكاء، ولجأت إلى الألمان، الذين فرضوا الشروط مقابل المساندة، والحصول على بعض الامتيازات كالحدّ من أطماع الإنكليز والفرنسيين في أرجاء الدولة.

عاد عمّي يدمدم لحناً ويغنّي:

- اللعنة على الروس، اللعنة على الألمان.

- ألن تصمت يا آفو؟

اكتشفت أن عمّي يعرف الكثير عن تلك السنوات، ما قبل حرب التهجير وما بعدها، وأنّ قراءاته كانت أكثر أهمّية ممّا اعتقدت. سمعت منه للمرّة الأولى باسم طلعت باشا وأنور باشا، وأن مادّة التاريخ في مراحل الدراسة حملت بعض الأسماء والعناوين، كجمعية الاتحاد والترقّي، ثمّ جمعية تركيا الفتاة، لكنّها مرّت دون انتباه، وعرفت من عمّي أنّ الألمان استغلّوا وجود طلعت وأنور اللذين كانا مشدودين إليهم.

- يا سلام! لقد ساهمت جمعية الاتحاد والترقّي في جمع الشمل في البلاد، لكنّ أعضاء الجمعية انقلبوا على التركي الآخر، وخصوصاً على المسيحي الأرمني.

بدا أبي لائماً، وتدخّل قائلاً:

- هذا طبيعي يا لورا. لجوء الأرمن إلى الاحتماء بروسيا أو مساندتها في الحرب يعدّ خيانة للدولة العثمانية.

كرّر عمّي هذيانه، فطلعت وأنور كانا دخيلين على الحكومة العثمانية، وعلى الدين الإسلامي، فقد أتيا لتخريب البلاد وتهجير المواطنين وزرع الفِتن بين الناس، وقال باستهزاء: من هو طلعت هذا؟ مجرّد موزّع للبريد، ثمّ موظف في محطّة التلغراف في أدرنة، وكوفئ لإخلاصه في جمعية الاتحاد والترقّي، ولأنّه يجيد الفرنسية، بأن قفز بسرعة من رتبة بك متواضع ولطيف، إلى باشا صلب وقاس ومتطرّف.

ضحك أبي من أعماقه. تذكّر ما قاله أحد السفراء عن لسان طلعت باشا من أنّه أنجز خلال حكمه كوزير للداخلية ما عجز عن إنجازه محمد علي باشا في ثلاثين عاماً.

هزّ عمّي رأسه ثانية، فمن هو طلعت باشا هذا؟ هنالك من يُدعى «الثالوث الاتحادي»، هنالك أنور وجمال أيضاً. الألمان خطّطوا، أمّا طلعت وأنور فنفّذا.

- وبقيّة الثالوث يا سيد آفو؟

- جمال... جمال. فرزوه للعرب. قسمة صحيحة وعادلة.

كلّ ما قاله عمّي آفو أو تفوّه به، قرأته بعد ذلك في الكتب الموثّقة منذ التخطيط الأوّل وبداية تنفيذ ما سُمّي بحرب تهجير الأرمن وإبادتهم.

3

لا تعلم جدّتي لماذا اختير شباب الأرمن ليكونوا في المقدّمة؟ قالت إنّ الاختيار وقع على من كان قويّ البنية منهم، وهذا ما حدث لأخيها، الذي تصفه بالرجل المميّز، فقد برز منذ صغره ولفت الانتباه بذكائه. وكانت له عين ثاقبة بكل ما يتعلّق بأمور الكهرباء، وتطوّرت مواهبه بعد نيله شهادة الميكانيك، وكان يأمل أن تستعين به بعض الشركات لصيانة آلياتها، لكنّ ما حدث أنّه اقتيد مع مئات من شباب الأرمن للعمل في الجيش العثماني. فوجئ الجميع بالخبر، فلم تكن له خبرة سابقة، كما لم يكن لغيره ممّن استدعوا للقتال، ولم يكن أحد منهم مدرّباً على أصول الحرب، وقد يكون هذا سبباً لهروب خال أبي من الالتحاق بالعسكر. يومها خسر الألمان، واقتيد كثير من شباب الأرمن مع أسرى الحرب إلى الهند.

قبل أن يلبّي جدّي نداء العمل في الجيش العثماني، كان يمتهن صناعة الحرير والتجارة به. تصفه جدّتي بالفنّان، فتربية دود القزّ على بساطتها، من حيث التكلفة والمستلزمات، تتطلّب مزيداً من الاهتمام، لتخرج خيوط الحرير بجودة فائقة.

تصف جدّتي أيضاً ما ورثه أبي عن أبيه، فإلى جانب المهنة ورث أيضاً بستان التوت، الذي يقع في أجمل منطقة في مدينة وان. كان الشجر يغطّي أرض البستان،

وفي منتصفه يقع البيت ومقرّ العمل. كان على جدّتي قطف أوراق التوت الخضراء، فتنتقل بين الأشجار وهي تغنّي. كانت تشتاق إلى لغتها الأرمنية، إذ لم يكن يسمح بتداول لغة أخرى غير التركية، فيما يعلّق جدّي على معنى الولاء والقانون وضرورتهما. ويتفانى في عمله ليكون الإنتاج مميّزاً وعالي الجودة، لضرورة الصدق في العمل، ونظراً إلى الإقبال الشديد على تلك الصناعة، التي تنتج الأقمشة الفاخرة، وخيوط الجراحة الطبّية وغيرها من الموادّ الهامّة.

لم يزل إنتاج الحرير وصناعته يستهويان جدّتي، فتستعيد تفاصيل العمل فيه، وتذكر أنّ إنتاجه يتضمّن شقّين، أوّلهما زراعة التوت وإنتاج بيض الديدان وتربيتها، ثمّ إنتاج الشرانق، ثمّ حلّ خيوط الحرير، أمّا الشقّ الثاني فهو صناعي ينحصر في تجهيز الخيوط وصناعة المنسوجات.

أكثر ما كان يروقني هو رحلتي مع الخيال، فأرى الفراشة الصفراء بجناحيها الجميلين وجلدها السميك المشعّر، وأتأسف على موتها بعد أن تضع ما يقارب أربع مئة بيضة زرقاء اللون، ولأنّها تفرز مادّة صمغية تجعلها تلتصق على سطح مستوٍ، وخلال عشرة أيام تفقس اليرقات، التي ستتغذّى على أوراق التوت أو أوراق البرتقال أو الخسّ، ويكون لونها رمادياً غامقاً أو قريباً إلى الصفرة.

كنت مغرمة بالاستماع إلى كلّ ما تقوله جدّتي، وكانت أحاديثها تترسّخ في ذاكرتي، فتعلّق بأنني أحفظ الأحداث عن ظهر قلب. عرفت ما كانت تعنيه جدتي آنذاك، فباستطاعتي استعادة قصصها بوقائعها وأرقامها كما كانت تسردها، وتسألني فجأة إن كنت أستوعب ما تقول؟ فأجيب بسؤال آخر وأنا أصرّ على استماع الجواب:

- هيّا يا جدّتي. ماذا يحدث للدودة التي تصوم؟

تضحك جدتي من أعماقها، فالدودة التي هي اليرقة تصوم لمدّة ستّة أسابيع، وتنسج حولها شرنقة بخيط واحد يراوح طوله بين 300 و900 م. فأقاطعها بجدّية وأنا أقول:

- بعد هذا تصبح كسلى كالصرصار.

تضحك جدّتي أكثر وتتابع:

- فعلاً تُصاب بالكسل، لكنّها لا تشبه الصرصار.

- ولماذا يقتلونها إذن؟

سؤال لم تجبني عنه جدّتي، لكنّني حفظت قصّة دود القز والحرير، وكيف ينتهي دور الدودة خلال حياتها القصيرة، فبعد أسبوعين تتحوّل اليرقة إلى فراشة، وتخرج من الشرنقة لتبدأ دورتها بوضع البيض من جديد ثمّ تموت.

- لماذا يقتلونها مع أنّها ستموت بسرعة؟

- فعلاً ستموت في الحالتين، ولذا يختار مُربّي الدود اليرقات المتميّزة عن غيرها، ويحتفظ بها لإنتاج بيضها

السليم، ويسارع إلى إنهاء حياة بقيّة الفراشات في شرانقها.

أكثر ما كان يشغلني هو طريقة قتل الفراشات في شرانقها، فأحتجّ في كلّ مرّة، فتنصحني جدّتي بعدم التفكير، فهي تُطلعني على أمور تتعلّق بالبشر وميولهم وأعمالهم، وعليّ تخزينها في ذاكرتي فقط، لكنّني بالنسبة إلى تلك الفراشات كنت أقارن، دون أن أدري، بين إبقاء الحياة على ذات الإنتاج الأفضل منها، وإنهاء حياة شخصيات من رجال الأرمن المميّزين.

لكنّ جدتي تتأوّه فجأة، فأضبطها متلبّسة بالحزن، وأنتشي وأهزّها من ذراعها، وأقول بخبث:

- ماذا تخبّئين يا جدّتي؟ قولي! هل مات أخوك؟

4

لماذا هُجّر الأرمن من منازلهم ومدنهم ووطنهم؟ هل حقّاً دبّ الخوف منهم؟ ألأنّ لهم باعاً في أكثر أمور الحياة المعيشية؟ ألأنّهم يعرفون الطريق إلى الثراء؟ أم لأنّهم السبّاقون في العلم والمعرفة، وفي مجالات الصناعة والتجارة؟ أم لأنّ بعضاً منهم -كما قيل- تواطأ مع أعداء تركيا آنذاك؟ أسئلة ما زالت لا تفارقني، وما زالت تقضّ مضجعي، كما تفعل الأسئلة الأخرى التي تتعلّق بحياة بشر لا ذنب لهم سوى أنّ لهم عقيدة مختلفة أو أنّهم ينتمون إلى عرق آخر.

قصّة جدّتي تشابه الكثير من قصص مرّت في زمن التهجير، وحين قرّرتُ نقل تفاصيل معاناتها، شعرتُ برغبة أكبر في البحث عن تفاصيل أخرى، تفاصيل أحاطت بها كما أحاطت بالأجواء العامّة آنذاك، ورحت أفتّش عمّا يُشبع فضولي، لأستحوذ على عشرات الكتب وعشرات المقالات في الصحف والمجلاّت، وكان أن لفت انتباهي بعض الكتب التي لها علاقة بذاكرة الأرمن، موثّقة بتواقيع الصحافيين وعدساتهم، وصور لا نستطيع تجاهلها.

لماذا هُجّر الأرمن؟ وهل يحقّ للدولة العثمانية طرد شعب بكامله لأسباب تتعلّق ببعض المشاغبين؟ أم أنّ الأطماع الخارجية خططت ونفّذت؟ وبقيت الأهداف رهن القادم من مؤامرات على المنطقة؟

من جهة أخرى، هل كان لروسيا دور، هل أثارت الأرمن القاطنين قرب الحدود الروسية العثمانية؟ هل حرّضتهم ومدّتهم بالمال والسلاح ودرّبتهم في أراضيها؟ هل حقّاً شكّلت جمعيات مسلّحة، أمثال حزبي الخنجاق والطشناق؟ وميليشيات من شباب الأرمن لتكون طابوراً خامساً؟ وقامت بمذابح وحشية في القرى الحدودية، والمناطق التي استولت عليها؟ وفي المقابل، هل قدّمت بريطانيا الدعم لتلك المنظمات، بُغية تفتيت الدولة العثمانية؟ فما كان من الأتراك سوى الدفاع عن أنفسهم وردّ هجمات الأرمن بهجوم مماثل؟

هل قرّرت الدولة العثمانية تهجير الأرمن وقطع الصلة بينهم وبين الروس؟ فحدثت عملية التهجير الواسعة والبدائية، فكانت باتجاه الدول المحيطة؟ أم أنّ الخطط والمؤامرات بين الروس والعثمانيين من جهة، أو بين الروس والحلفاء من جهة ثانية، أو بين عملاء الأرمن والعثمانيين من جهة ثالثة، أسئلة لا جواب لها، فالتاريخ قدّم نتائج على أرض الواقع، هناك قاتل ومقتول، ظالم ومظلوم.

هذا ما قاله كثيرون، فأحد المؤرّخين الأتراك يقول: «يندر وجود قرية في شرقيّ الأناضول لم تتعرّض لمذبحة أرمنية».

أمّا أنا فلا أفهم في السياسة، ولا أستطيع الجزم أين كانت الحقيقة، وما هو الدافع للتهجير، وهل حقّاً هُجّر آنذاك المسيحيون، من أرمن وكلدان، ومن يونانيين

وآشوريين؟ كما لم تنجُ فئات من المسلمين من التهجير؟ ومَن أوغر صدر الدولة التركية على الأقلّيات التي عاشت في ظلّ حكمها مئات السنين في وئام وسلام؟ أم أن طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا، الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، أرادوا تنظيف الدولة العثمانية من الشوائب العالقة بها؟ أسئلة راحت تشبّ في ذاكرتي وتتضخّم مع تدفّق الوقائع، ومع الإحصائيات المدوّنة في ذكرى مذابح الأرمن. فهل من المهمّ أن يصل الرقم إلى مليون ونصف المليون كما يقول كثير من المصادر؟ أم أنّه مع تناقص العدد ستختلف الدوافع والغايات؟

أسئلة لا تهمّني أجوبتها، ولا أستطيع الإشارة إلى الصواب منها، فتلك أمور لها أصحابها ومتابعوها، على عكس ذاكرتي التي هي الرابط الذي يأبى مفارقة مشاعري وأحاسيسي، والتي تأتي مع الصبح والمساء، مع النسمة والخطوة، ومع مفردات النوم والصحو ومتطلّبات الحياة، كيف يستطيع سويُّ النفسِ والعقل قتلَ إنسان، ذنبُه أنّه اختلف عنه في أمور لا يد له فيها؟ أم أنّ هنالك أموراً أكبر ممّا نستطيع تفسيره، أو نبحث عنه كما تفعل بعض الدول المتنفّذة، عندما يُطلب إلى دولة غاشمة الاعتذار؟ فهل يهمّ أن تعتذر الأجيال الجديدة، التي لا ذنب لها عمّا اقترفه الأجداد؟ هل يهمّ اعتذار اليابان عن مخلّفات الحروب، أو اعتذار أميركا عن جرائمها في حقّ الهنود الحمر، أو في هيروشيما، أم هتلر عن مذابح اليهود، أم إسرائيل عن تشريد شعب

واغتصاب وطن، أم التغاضي عمّا يحدث في العراق وغير العراق؟ هل يكفي الاعتذار ليصبح ذلك ذريعة لاستمرارية الذنوب والأخطاء؟ أمس أو اليوم أو غداً؟ وهل ننسى أنّ تلك الأخطاء لها وجه واحد، لا غفران له مهما عظمت تلك الاعتذارات؟

لم يعد لي من عمل سوى قراءة تاريخ تلك الحقبة، فأقول إنّه صديقي الوحيد، إذ لم يمضِ شهر إلاّ وكان بحوزتي مزيد من المعلومات، غير أنّني تريّثت قليلاً، فقد دهمتني صورة جدّتي وهي تفارق الحياة، وكنت أستعيد مراحل من طفولتي، تلك الطفولة التي أرادها والدي نقيّة الصورة، لم أسمع منه في يوم ما له علاقة بماضينا، لم يحدّثني عن أمر يخصّ الأرمن، أو أن أصولنا ليست من بلاد الشام، فجدّاي من بلاد الأناضول، وأمّي من ديار بكر، وأبي من بلدة القيصرية، لكنهما أقاما في مدينة وان، حيث ولِد أبي توأمَ شقيقته التي ماتت. كانت جدّتي تزور أهلها مرّتين في العام، مرّة في رأس السنة، ومرّة بعد مواسم التوت. كانت تحبّ أخاها وتصمت كلّما ذُكّرت به، فأحثّها على المتابعة. أعرف الآن أنّ جدّتي كانت في تلك الفترة تتخوّف من أمر ما، ولا أدري كيف أتاني يومذاك ذلك الإحساس فسألتها بجِدّية:

- هل كنتِ خائفة يا جدّتي؟

- لا. لأنّ ما سيحصل سيمرّ عليه النسيان.

- كما أنت الآن!

- أجل كما أنا الآن.

احتفظت جدّتي بأحزانها، لم تشأ نقل الألم إليّ، وحين كبرت استطعتُ استعادة كلّ كلمة قالتها، واستطعت تفسير كلّ فكرة أرادت نقلها إلى قلبي الصغير آنذاك.

حين ماتت جدّتي، لم يكن لنا أقارب، سوى عمّي آفو وبعض المقرّبين من الأصدقاء، وكلّ ما أعرفه عن العائلة، هو دعوة الجيش العثماني لجدّي في فترة الحرب إلى «العسكر» وهجرة جدّتي بعد خبر موته إلى بلاد الشام، برفقة أبي وعمّتي، لكنّ عمتي ماتت في الطريق، قبل أن تصل القافلة إلى حلب، وقبل أن تستقرّ أوضاع الأرمن في أرجاء المنطقة، وقبل أن تُهجّر جدّتي مع كثيرين من الأرمن إلى «رأس العين»، وقبل أن يتفرّق الأرمن في بلاد الشام، بين من أدركه الموت ومن بقي منهم على قيد الحياة.

أعرف أيضاً أموراً كثيرة، فقد سكنت جدّتي وأسرتها في مكان يدعى الكيدون وهو بناء قديم، جدرانه وسقوفه من الحجارة، وفيه مدرسة تخصّ الأرمن، وكنيسة للعبادة يقال إنّ عمرها أكثر من ثماني مئة عام، هذه الكنيسة التي أزيح عن جدرانها أخيراً طبقة من مادّة كان الأرمن قد أخفوا بها معالمها أيام الحكم العثماني.

أعرف أيضاً أنّ أبي لم يتابع الدراسة بعد المرحلة الثانوية. عمل في بادئ الأمر مصوّراً متنقّلاً، يحمل آلته في المناسبات ويلتقط الصور بأجر بسيط. كان أبي، كما تقول جدّتي، فنّاناً كأبيه، تنظر إليه بفخر واعتزاز، وتتذكّر أيام العمل في صناعة الحرير، أبي يشابه أباه،

فأحاول التمعّن في ملامح أبي، وأستمد الإعجاب من نظرتها إليه. وكنت أسألها باستمرار عن أُسرة أمّي، فلا تملّ جدّتي السؤال، وأستمع إلى ردّها المكرّر، فأمّي ولِدت في أولى أيام التهجير، أمّا جدّتي لأمّي فماتت على الطريق، وأعود فأكرّر السؤال: وأخواها ماتا أيضاً، وأبوها، أين ذهب؟ ويأتيني الردّ ببساطة: ذهب ولم يعد.

توسّع عمل أبي شيئاً فشيئاً. شارك في إحدى الجمعيات السكنية، وامتلك بيتاً ومقرّاً خاصّاً للتصوير، أمّا عمّي آفو فقد أصبح طبيباً ناجحاً. وبوجه عام أصبح كلّ من أبي وعمّي في بحبوحة، ولا سيّما عمّي الذي لم يكن مسؤولاً عن إعالة أسرة.

أجمل أيّامي تلك التي قضيتها بصحبة جدّتي، وأشبّهها الآن بقصص ألف ليلة وليلة، أو بقصص الخيال العلمي. كانت أحداثها مدهشة، وصورها مُستغربة، ولا أدري الآن كيف صدّقت ما قالته جدّتي دون أن أذرف دمعة؟ دون أن أبكي عليها أو على جدّي الذي ذهب ولم يعد؟ أم على خالي وخالتي؟ أم على الصبايا والشبّان؟ كيف استوعبت ما جرى وخزّنته في ذاكرتي وعقلي، وكأنّه شريط مصوّر يعبر بسلام، لماذا كان لثرثرة جدّتي طعم اللامبالاة؟ وأنا التي أبكتها قصصُ الأطفال الكرتونية، ليلى والذئب، ساندريللا، بياض الثلج، وغيرها من الأفلام؟

كانت بلاد الأناضول في ذاكرتي مسرحاً واسعاً متعدّد الألوان، مرّ به الحسنُ والسيّئ، القويّ والضعيف،

المخلص والخائن، وتعاقب على الحكم فيه رجال مخلصون، وأتى إليه مخرّبون. مرّت تلك البلاد بالحضارة تارة وبالانحطاط تارة أخرى. عاش فيه الطّيبون والدسّاسون، المخلصون والمنافقون، وكان باستطاعتي رؤية النعاج بينهم والذئاب منهم. تقول جدّتي لولا المطامع الاستعمارية لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، ولولا مقاومة بعض السلاطين ومواجهتهم للاستعمار لحصل لأجدادنا ما حصل لنا، لكنّ الشر أقوى من الخير، وهو الذي مكّن المخرّبين من الوصول إلى غاياتهم.

- ما هو الشرّ يا جدّتي؟

- قتل النفوس البريئة.

- والخير؟

- أن تحب لنفسك ما تحبّه لغيرك.

في زمن مضى كان الجميع في سلام ووئام، قالت هذا جدّتي، لكن حين يتفشّى الجهل، يصبح المستغِلّ بطلاً والضعيف ضحية.

كلّ قصص جدّتي وكلماتها حُفرت في ذاكرتي، أسمعها حين أقرأ أو حين أكتب أو أدرس، وعليّ أن أنجح وأتفوّق، كلماتها تحثّني على المتابعة، على استسهال الصعب والوصول، قلت في نفسي ذات عام دراسي، لِمَ لا؟ كنت متفوّقة بين زميلاتي، وكانت إدارة المدرسة تكافئني كلّ عام، فتقدّم لي كتاباً أو شهادة تقدير أو تُثني على اجتهادي، على أنّني لم أشعر بالتميّز أو الفخر،

وكأن هذا التقدير جزء من مسيرتي عبر السنوات المقبلة، كأنّ جدّتي التي مدّتني بمسيرة عمرها الطويل تستحقّ التقدير الحقيقي. لست أنا التي تنال المكافأة، إنّها جدّتي التي صنعت فيّ التميّز، هي التي ستبقى خلف حركتي وتمنح مصيري الثقة والاطمئنان، وكنت بيني وبين نفسي أعترف لها بالحبّ والتقدير.

تفوّقت في مراحل الدراسة. كان آخر تفوّق يوم نلت الثانوية العامّة، بمجموع يخوّلني الانتساب إلى ما أريد، لكنّني أصررت على دراسة التاريخ. لم يصدّق أبي اختياري، وصمتت أمّي على مضض، فقد خيّبت أحلامهما في الطبّ أو الهندسة.

تقع مدينة وان على بُحيرة وان في المنطقة الشرقية من الأناضول، يحدّها من اليمين بلاد فارس، ومن الجنوب بلاد الموصل، أي العراق، وولايتا «حلب» ودير الزور وما بينهما، أمّا شمالها فتقع أرمينيا وروسيا القيصرية.

كان عدد سكان مدينة وان عام 1914 ما يقارب الثلاثين ألف نسمة. وكانت تتمتّع بوعي أفضل من بقيّة المدن التركية، ربّما بسبب حاكمها آنذاك تحسين باشا، الرجل المثقّف والواعي. كانت الحياة مقبولة في تلك المدينة، كما تصفها الجدّة آرشا، لجميع سكّانها من أتراك وأرمن وأكراد، عدا بعض الاعتداءات الفردية بين حين وآخر.

ولأسباب مجهولة استُبدل تحسين باشا بجودت بك صهر أنور باشا، فكان من الطبيعي أن يسبّب هذا امتعاضاً لسكان وان، إذ قيل عن جودت بك إنّه منافق ومتقلّب الطباع.

- كيف عرفت هذا يا جدّتي؟

- كان يجمع نخبة شباب الأرمن، ويحرّضهم للتمرّد على وضعهم.

- ما معنى يحرّضهم؟

- ينصحهم بخلق فتنة.

- فهمت. فتنة تعني حرباً. ومن يحارب لا يفهم.

تضحك آرشا وتقول:

- ربّما كان بعضهم متهوّراً ولا يفهم، لكنّ كبار الأرمن كشفوا الغاية، وطالبوا الرعيّة بالحفاظ على الهدوء، وتحمّل الاعتداءات، كي لا يتركوا لجودت بك فرصة تحقيق حلمه باندلاع الثورة في وان.

- كيف عرفت هذا؟

تضحك آرشا وتجيب:

- حدّثني نازار بكلّ تلك التفاصيل، كان بينهم.

- مَن هو نازار؟

- ما بك يا لورا؟ جدّك.

- أعرف. لكنّني أمزح.

لم أكن أمزح، وربّما كان عقلي آنذاك لا يستطيع استيعاب كلّ ما تقوله جدّتي، على عكس ما حدث لي حين كبرت واستعدت كلّ كلمة، وربطتها بقراءاتي المتواصلة، إن كان ضمن المنهج الدراسي المقرّر، أو ضمن أبحاثي، أو ممّا يقع تحت يدي من كتب لها عناوين تخص تهجير الأرمن أو مذابحهم.

عرفت أموراً كثيرة، كانت للأتراك أسبابهم، وكانت للأرمن أسبابهم أيضاً، أمّا من زرع الفِتن بين شعب عاش آلاف السنين دون ضجيج، فذلك علمه عند الباحثين والمؤرّخين. باستطاعتي فقط سرد بعض ما قرأته، وبعض ما توصّلت إليه، وإن لم أتمكّن من حجب رؤيتي الخاصّة التي لا يد لي فيها، وإنّما أروي الحقائق التي

أعرفها، والتي كانت سبباً في كتابة النصّ، الذي يغصّ بظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

لم يكن أبي راضياً عن اكتشافاتي اللا مجدية، وكان بوجهه القريب من الاستدارة، لا يُشبه عمّي آفو. كانا مختلفين في المظهر، أبي متوسّط الطول، ممتلئ الوجه، أقرب إلى السمنة، وكان عمّي ببنيته الضعيفة، واستعداده للمرض، يبدو أطول ممّا هو عليه، وكان باصطناعه للهذيان يبدو أقرب إلى الجِدّية من أبي الذي لا يتوقف عن المزاح، فلا أستطيع تمييز الجد في تعليقاته، على خلاف عمّي الذي يتحدّث بعفوية، رامياً ذنوب أفكاره على زجاجة النبيذ الأحمر، الذي راح يتعاطاه أخيراً.

ولِد عمّي آفو في شتاء عام 1916، بعد ولادة أبي بعشر سنوات تقريباً، وكان يبدو مطيعاً له، يستمع إليه باستسلام، ولا يعقّب على رأي له أو حديث، وكان صمته في بعض الأحيان يدهشني، ولا سيّما حين يمازحه أبي، أو حين يستمع إلى تعليقاته كلّما ضبطني وأنا أقرأ في نصوص التاريخ، أو حين أردّ على أبي باستغراب، أو ألومه على تجاهل رحلة التهجير، التي عاشها خطوة خطوة. وأرى الاستنكار في عينيه وهو يستمع إلى أبي مردّداً:

- إنّها المشيئة. إنّها المشيئة.

عندها يغادرنا عمّي إلى غرفته الجانبية، بينما تحوك أمّي بإبرتها الرشيقة خيوطاً مذهّبة، فوق قطعة كتّان

ناصع البياض، كما تفعل في أوقات الفراغ.

- أيّة مشيئة يا أبي؟

- مشيئة القويّ.

لم يكن أبي صغيراً آنذاك كي لا يتذكّر، كان في العاشرة من عمره، لكنّه بطريقة أو بأخرى رفض مساعدتي على نقل تلك التفاصيل. يكفي أنّه بقي حيّاً مع جدّتي. مات من أراد له الله الموت، أمّا هو فقد شاء الله له أن يبقى ويتزوّج أمّي، وينجباني.

ولِدت أمّي قبل التهجير بأشهر قليلة. كانت تصغر أبي بسنوات عشر تقريباً، وهذا ما لا ينساه أبي، فقد دبّت الغيرة في صدره يوم تيتّمت، والتحقت بأسرتنا، وصبّت جدّتي عليها ما لديها من عطف وحنان.

- كان هذا ثمن الليرات الذهبية.

يقول أبي مازحاً.

تترك أمّي إبرة الحياكة. تنظر إلى أبي بذهول، وتكرّر التعليق، فجدّتي ستحنو عليها لأنّها يتيمة، و لا حول لها و لا قوة.

يضحك أبي، فأمّي محظوظة، لأنّها لم تُرمَ لتنهشها الكلاب، أو لتقتات بها النسور، أو لتميتها الكوليرا كما حدث لكثير من الأطفال.

هذا هو أبي. لا يستحضر ذاكرته إلاّ ليحمّلها مزيداً من المزاح. تلك الأسرار التي بقيت طيّ الكتمان، نتيجة دفنه لذاكرته في أعماقه، هو من أراد لها النسيان، فالإرث قاتل وجبان، قد يكون إرثاً من قمع متأصّل في

النفوس، وقد يكون تجنّباً لقهر مميت. لكنّ ما أذكره عن طفولتي ونشأتي هو أنّ ما يخصّ الماضي لم يرد إلى الحاضر في يوم من الأيام، لم يرد في بيتنا، ولم يرد في علاقاتنا بالأقارب أو الأصدقاء، أو على مقاعد الدراسة، وما حاولت جدّتي زرعه في رأسي الصغير، كان كحبّة قمح ستنبت ذات يوم، وتستقي من الحقيقة التي لن يستطيع التاريخ تجاهلها أو طمسها.

7

تمتّعت آرشا، جدّتي، بالصحّة والجمال، وزادتها نضارة مسحة الطمأنينة التي تعمّ أسرتها الصغيرة، المؤلّفة من زوجها وطفليها التوأم. كان نازار يقول إنّها أجمل نساء الأرض، ويعلّق في كلّ مرّة، فهي لا تهتمّ بالمدح أو بالكلام المنمّق، وتكرّر الجواب في كلّ مرّة: لا يهمّني هذا بقدر ما تهمني العناية بطفليّ الجميلين.

ازدادت آرشا اهتماماً بطفليها، سواء في ما يتعلّق بمسؤوليات البيت، أو الأمور المدرسية، كانت تُعنى بكلّ ما يتّصل بهما، وتخيط ثيابهما، أو تحوك لهما القبّعات الملوّنة، فيبدوان كفراشتين في أرجاء البيت، أو عبر الفسحة المؤدّية إلى بستان التوت الأخضر، أمّا في صبيحة يوم الجمعة، حيث تجتمع الجارات لاحتساء القهوة التركية الساخنة، فتدور مختلف الأحاديث، وتنحو الأمور منحى مختلفاً، فلا مكان في تلك الثرثرات للهموم الأسرية، ولا للقضايا المعيشية، ولا لتربية دود القز وصناعة الحرير.

كانت جارات آرشا من مختلف أجناس المجتمع التركي. أظنيف الأرمنية، ونظلة التركية، وروني الكردية، يجتمعن على الودّ ويختلفن على السياسة المتّبعة في البلد، لكنّهن يتّفقن أخيراً على أنّهن سيتآزرنَ في كلّ مناسبة. تُعدّد آرشا معارف أسرتها وأقاربها الذين قتلوا باسم التطهير العِرقي خلال ربع قرن مضى، منذ

عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فتنبري نظلة للدفاع عن وطنية هذا السلطان، أليس هو من وقف في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين؟ ألم يقل: «لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحدة، لأنها ليست لي بل لأمّتي، ليحتفظ اليهود بملاييهم، فلن نقسّم الإمبرطورية، ولن يحصل اليهود على فلسطين».

هذا ما حدث، قالت أظنيف، لقد رفض السلطان عبد الحميد مشروع هرتزل ومقابلته؟ فأصبح السلطان هدفاً لمخططاتهم؟ فعلاً يقول التاريخ: إنّ هرتزل نصب الكمائن لقتل السلطان أكثر من مرّة.

ضحك الجميع، أجل. لقد أصاب السلطان مرض الخوف من الموت قتلاً!

بعد صمت قصير، قالت آرشا وكأنّها تذكّرت أمراً:

- نحن نتحدّث عن ماض قريب ونعرفه جيّداً، لكنّ نازار يعود إلى قرون مضت.

حدّقن إليها، بينما تتابع:

- يقول نازار: يجب ألاّ ننسى موقف الإسلام من اليهود أيّام محاكم التفتيش في أسبانيا في القرن الخامس عشر وما لاقوه في القرن التالي ثم معاناتهم على يد القيصر الروسي في القرن التاسع عشر، وعندما لجأوا إلى الشرق والدولة العثمانية، التي حمتهم من القتل والموت.

هزّ الجميع رؤوسهنّ، لكنّ آرشا وأظنيف، مازالتا تتذكران ما حدث لأفراد أسرتيهما قبل سنوات، في

حملة الإبادة المنظّمة، التي ذهب ضحيّتها ما يقارب المئتي ألف أرمني، وفي عام 1909 ذُبح في كيليكيا نحو 30 ألف أرمني. كان السلطان خلال ذلك يتوجّس ممّا يحدث حوله، فالخطر يحوم بدءاً من أرمينيا التي قد تطمح إلى بناء أمّة مستقلّة، وتتعاطف معها كلّ من روسيا وأميركا، خصوصاً أنّ الحرب التركية - الروسية انتهت بإعطاء الدول العظمى حقّ مدّ يد العون إلى الأجانب المقيمين في الأراضي التركية.

- قد يكون لخوف السلطان وتوجّسه عذر.

- وهل للسرقات وقتل الأبرياء واغتصاب النساء عذر؟

صمت الجميع، فما يقال له علاقة بطُغمة حاكمة من الفاسدين، لم يسلم أحد من أذاهم، واضطهدوا كثيراً من الشعوب، كالعرب والأتراك والأرمن بصورة خاصة.

- يطلقون على الأرمن صفات عدّة، فهم بلغاريا الثانية، ويجب إزالتهم من الوجود.

بدت النسوة في حالة انسجام، هنّ في قلب التاريخ، في عمق الخوف والألم، جمعهنّ الماضي وترقُّب المقبل، فجمعية تركيا الفتاة تشكّلت من أقربائهنّ وأصدقائهنّ، من أرمن وأتراك، وتهدف إلى مقاومة الطغيان، والوقوف في وجه فرقة «الآيرلي» التي أُنشئت لتأديب العصاة، أو قمع التمرّد.

لم يكن التاريخ بعيداً عن الذاكرة، كلّهنّ يعرفن ما يجري، ولا ينسين ما كان يدور على مسامعهنّ مذ كنّ صغيرات، وما حدث قبل عقد أو عقدين ما زال في

ذاكرة كلّ منهنّ، وكذلك الخوف ممّا قد يجري في أشهر أو في سنوات قادمة، فهنالك بوادر جديدة تتجلّى في أسماء جديدة. كنّ يُبدين آراءهنّ، ما عدا أظنيف التي بدت ساهمة.

- ما بك؟ ألن تبدي رأياً؟

- لا رأي لي. أنا امرأة أرمنية الأصل، مات أجدادي على يد العثمانيين، ولا أدري ما تخبّئه الأيام.

حنت آرشا رأسها، بكت وهي تتذكّر أختها التي سيقت كمحظيّة إلى قصر الحرملك، في عهد السلطان عبد الحميد ولم ترها منذ ذلك اليوم.

- مرّ على ذلك سنوات، نرجو ألاّ يحدث ذلك ثانية.

كانت نظلة تحبّ آرشا، وتتعاطف معها. سقطت دمعتها هي أيضاً وقالت:

- إنّها السياسة يا آرشا. لا أحد يحبّ ما حدث أو يريده.

فُضّت الزيارة بدخول نازار وعلى وجهه مسحة من قلق.

نازار هو جدّي لأبّي، لا أعرف كيف كان شكله، فلم يكن بحوزة جدّتي صورة له أو ما يثبت شخصيته، ما أعرفه أنّه كان واسع الثقافة في غير مجال، فإلى جانب عمله في صناعة الحرير وإنتاجه، كان يهوى جمع الكتب وقراءتها، وتميّز بحبّه لقراءة التاريخ. كنت أستشف بيني وبينه تلك الصلة، وأُرجعها إلى عامل الوراثة، وقد نفترق ونلتقي في آن واحد، إذ كان هو يستقي الأحداث من تاريخ قريب، وكنت أبحث عن تلك الأحداث في الكتب والمدوّنات.

قال نازار لآرشا:

- يبدو أنّ الأوضاع ستتغيّر.

غمرت الدهشة آرشا، فيما كان نازار يطيل الحديث في آخر ما سمعه من أخبار. لقد ظهر زعماء جُدد يحملون شعارات جديدة، كالحرّية والحكم الذاتي، ونظام الحكم الدستوري، وغايتهم قلبُ نظام السلطان وإحلال نظام البرلمان.

- هل صدّقت هذا يا نازار؟

- يجب أن أصدّق. إنّ أمل الأرمن في حملة لها ملامح التطوّر، هذه الحملة تُدعى «تركيا الفتاة»، يقودها طلعت باشا، وأنور باشا وجمال باشا، يساعدهم رجال من لجنة «الاتحاد والترقّي».

- هل سنعامل كبقيّة المواطنين، لنا ما لهم من الحقوق وعلينا ما عليهم من الواجبات، وتُنفى عنّا صفة الكفار؟

حدثت في الأيام التالية أمور أذهلت الجميع، فقد تبادل الزعماء الباشوات، طلعت وأنور وجمال، مع الأرمن مظاهر المحبّة، زاروا مدارسهم، صلّوا في كنائسهم، بكوا في مدافنهم، واعتبروا أمواتهم شهداء البلاد. وهكذا أُعلن التآخي، فبدا النزاع وكأنّه ذهب إلى غير رجعة.

على أنّ الخوف أخذ يتسلّل إلى نفوس الأرمن شيئاً فشيئاً، وتمرّ الأيام بين ترقّب ووجل، فالاعتداءات لم تتوقّف، ونصائح كبارهم بالتروّي تصاعدت، إذ إنّ موت أفراد من الأرمن خير من موت أمّة بكاملها.

- هل أنت خائف يا نازار؟

أتاني صوت أبي يتدفّق خفّة ومزاحاً وهو يقول:

- ولماذا الخوف يا لورا؟ المشكلة عند الباشوات، هم لا يعرفون كيف يكون الحوار، لهذا اكتشف هؤلاء الزعماء أنّ الخطأ يكمن في سياساتهم منذ البدء، وعليهم تصحيح مواقفهم.

- أبي!

- ما به أبوك؟ أعتقد أنّ العثمانيين قد أخطأوا منذ بداياتهم، أي منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كان عليهم إبادة سكّان المناطق التي احتلّوها، وإسكان الأتراك عوضاً عنهم.

- أنت تتحدّث كأولئك الزعماء.

- لو فعلوا ذلك، لما وجِدت بلغاريا الحديثة، ولا فقدت تركيا من إمبراطوريّتها، كان عليهم القضاء على الرومان والصرب واليونان، لو فعلوا لبقيت جميع المقاطعات تحت حكم السلطان.

غادر أبي قبل أن يستمع إلى لومي، وعدت إلى جدّي الذي ما زال خائفاً، فقد حدّثه أحد الكهنة عمّا يدور في أروقة القصور، فالمخططات القادمة تُطبخ على نار هادئة. وقد تحدث أمور بشعة، فنظام تركيا الفتاة تراجع عن مبادئه المعلنة، وأسفرت وعوده عن خطط مرعبة ستمرّ بها البلاد.

جاءت نظلة على غير عادتها، في عينيها أكثر من حديث، وما إن انفردت بجدّتي حتّى قالت:

- ليتكم ترحلون إلى خارج تركيا يا آرشا، هنالك أخبار بشعة.

- كيف عرفت يا نظلة؟

- أنت جارتي وبيننا عِشرة عُمر، لا أريد أن أراكم في مأزق، بينما لا أستطيع مساعدتكم.

- بل ستساعدينا.

- قلت لك لا أستطيع، لأنّ الخبر يقول بأنّ الشباب التركي سينقضّ على مساكن الأجانب، ويحقّ له قتلهم.

- كيف عرفت؟

- تبيح خطّة تركيا الحديثة خطفَ الفتيات، وقتل الشباب والشيوخ. هذا ما يدور، ولا سيّما بين الشباب التركي المتعصّب، فقد راقتهم الفكرة، وحان الوقت

لتنظيف المنطقة من الأجانب والكفّار، لتصبح تركيا للأتراك فقط. اسمعي نصيحتي يا آرشا.

- غريب ما أسمع يا نظلة، نحن في نظرهم غرباء وأجانب، ونسوا كيف حاربنا معهم، وكيف استبسل الأرمن في الحرب ضدّ إيطاليا والبلقان، وكيف قدّم الجنرالات الأتراك أوسمة الثناء لهم تقديراً لبسالتهم.

لم تصمت آرشا، وكانت تلعن الساعة التي صدّقوا فيها إعلان تركيا الفتاة، والإيمان بدولة دستورية قادمة، ها هي ذي الآمال تخيب، تختفي الديموقراطية، ويبقى الدستور حبراً على ورق، ويتحوّل أعضاء الحزب إلى قوميّين هدفهم تتريك سائر الشعوب المنضوية إلى السلطة العثمانية، ومن بينهم الأرمن، لينتهي خلال ذلك عهد السلطان، ويدخل عهد الباشوات. تُرى! ما الذي يخبّئه كلّ من الباشوات طلعت وأنور وجمال؟

لم تكذب نظلة، فخلال أيام أُلغيت الامتيازات، وخرّبت مدارس الأرمن، واستعيض عن العمّال الأجانب بعمّال أتراك، وتوّج ذلك بمذبحة أضنة التي قيل إنّ 35 ألف أرمني أُبيدوا فيها.

دخل أبي حاملاً حقيبة صغيرة، أخرج مجموعة من الصور ووضعها على المنضدة. كانت قسمات وجهه هادئة، وعيناه صافيتين، وخطر في ذهني أنّني أحبّه جدّاً، وأنّني مدينة له بما وصلت إليه، فقد دفعني دون أن يدري إلى متابعة دراستي. ربّما كان الفضل لجدّتي في اختياري دراسة التاريخ، غير أنّ لأبي الفضل في تأمين مستلزماتي الدراسية كافّة. وكان لا يترك مناسبة إلاّ ويعبّر عن سعادته بي، ربّما لأنّني وحيدته، وأنا عنده ابنة بارّة، استعاض بي عن الإنجاب مجدّداً.

سألني فجأة:

- إلى أين وصلت؟

أجفلت. قلت:

- إلى جدّي نازار.

- قبل سفر برلك إذن.

تذكّرت جدّتي. صمتّ. قال بطريقته المعهودة:

- أرى أنّ الباشوات كانوا على حقّ. كان على العثمانيين إجلاء سكّان المناطق التي يحتلونها تباعاً، والاستعاضة عنهم بالأتراك، لو حدث هذا لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن، وربّما لم نوجد فوق هذه الأرض.

- وربّما تصادم الأتراك مع السكّان الأصليّين، ووقعت مجازر مخيفة.

- فليكن! أنا مع رأي الباشوات.

- أنا لست معهم، لا في السابق ولا في اللاحق.

شرد قليلاً، وراح يغنّي على أنغام لحن تركي، كنت قد سمعته مراراً، وكنت أشعر كلّما تذكرت اللحن أنّ في تلك النغمات ما يشبه لحناً أعرفه، وربّما أحبّه، تخلّله بعض تعليقات أبي، كم هو حزين هذا اللحن؟ ربما دمدمه طلعت باشا، أو أنور باشا، وربّما غفا على أنغامه جمال باشا، أليس هذا رائعاً يا لورا؟

جاء صوت أمّي:

- ألا تكفّان عن الثرثرة؟ ألم تجوعا؟ لقد جهّزت غداء تحبّانه.

ما زال طبيخ جدّتي في الذاكرة يُسيل لعابي، وما زالت أمّي تطبخ على غرارها، غير أنّ طعم ما كانت تطهوه جدّتي يقترن في ذاكرتي بأحاديثها وحكاياها، علّق أبي قائلاً:

- غريب أنّ جدّتك لم تنسَ الطهي وتحضير موائد الطعام!

استغربت تعليق أبي، الذي راح يجيب عن تساؤلاتي قائلاً:

- لجدّتك ذاكرة عجيبة، فخلال أشهر التهجير لم تطبخ مرّة واحدة، ولم تأكل بصحن أو ملعقة، ومع ذلك أورثت أمّك صنع أفضل المأكولات!

لملمت أوراقي وعلّقت بامتعاض:

- هل توقفت ذاكرة جدّتي عند أصناف الطعام يا أبي؟

- لا أدري. اسأليها.

وقفت أمّي على مقربة. قالت تلوم:

- قولا: الرحمة عليها. ألا تكفّ عن مزاحك يا واهان؟

- أنا لا أمزح، وأعتقد أن الجواب عند لورا. كانت كاتمة أسرارها.

عدتُ في الحال تلك الطفلة، لذتُ بأحضان جدّتي، فتحت عينيّ وأذنيّ، وركضت عبر بستان التوت، وأنا متعلّقة بأطراف ثوبها، رافقتها، بكيت معها، تعبت مثلها، عطشت وجعت، استمعت وشاهدت، وتحوّلت على غفلة إلى كائن مرذول، خارج من دائرة البشر، رأيت الموت، عشت التعذيب، الجوع والعطش، الخوف والانتظار، رأيت الأطفال يموتون، رأيتهم يُقتلون، شاهدت الصبايا يُغتصبن، والشيوخ يشرّدون، رأيت القوافل تُنهب، وقُطّاع الطُرق ينكّلون بالعزّل، رافقت جموع الأرمن، في الحافلات وعلى الطرقات، في الجبال والصحراء، في القيظ والبرد، رأيتهم يموتون تحت الشمس الحارقة، أو في طيّات بئر أو نهر، رأيت الأطفال يتضوّرون جوعاً، والحوامل يُجهضنَ، والنساء يُغتصبنَ، شاهدت رجال الدرك هياكل فارغة، خالية من الرحمة، آليّات تلبّي نداء الشرّ، قلوباً تتشفّى بالقتل والتدمير، لأجد نفسي تائهة كالمجنونة، بين أناس أضاعوا عقولهم، لا أعرف خلاصاً أو منفذاً، وأكتشف أنني لا أعرف مناداة الله، وأنّنا لسنا من البشر، ولسنا من حيوانات الغابة، كنّا قطعاناً نُساق إلى الموت بخنوع واستسلام شديدين.

ما حدث في مدينة وان حدث في بقيّة المدن، فقد اختير نخبة شبّان الأرمن للمشاركة في الحرب ضدّ روسيا. ولم تكن آرشا خائفة على زوجها بقدر خوفها على أخيها، الذي يحمل المواصفات المرغوبة، كمثقّف مميّز، وخبير مختصّ بأمور الميكانيك والكهرباء، التي برع فيها منذ طفولته.

لكنّ تركيا خسرت الحرب، وبالتالي لم تُجدِ مشاركةُ مئات الآلاف من جنود الأرمن في كسبها. وحين أرجع طلعت باشا ذلك إلى ولاء الأرمن لروسيا، كانت آرشا تنتظر خبراً عن أخيها، الذي ربّما لبّى النداء ولم يعد، كما حدث للكثيرين في وان، وربّما انضمّ، كما فعل بعض شبّان الأرمن، إلى الجيش الروسي.

- ماذا تقول يا نازار، أخي ملتزم بقضايا وطنه.

- لست أنا من يقول، إنّه جودت بك.

شعرت آرشا بالخوف، ولعلّ جودت بك أرادها إشارة إلى أمر مقبل، فهو يدرك تماماً مدى خبرة الأرمني في خريطة المنطقة، ولا سيّما مدينة وان ذات الموقع الاستراتيجي، ومن خلال تضاريسها يعرف العبور إلى روسيا، وقد يكون هذا سبباً في اشتعال غضب جودت بك، واتخاذه قرار الثأر من بقيّة الأرمن، فأمر بحرق بعض بيوتهم، وسبي بعض نسائهم.

ذلك الصباح نصح الكاهن بعض الشباب المحتجّين قائلاً:

- قد يكون هذا مصيدة، فما يحصل من دمار خير من تدمير أمّة.

لكنّ الشباب الذين يرون أنفسهم ملتزمين بقضايا الوطن، أبدوا استياءهم واحتجاجهم على معاملة جودت بك، وشكّلوا وفداً مكوّناً من مئات الرجال، ذهبوا سيراً على الأقدام لتقديم الشكوى، لكنّهم لم يعودوا.

بعد أيّام وصل إلى وان أخو آرشا. كان متخفّياً تحت جنح الظلام، على وجهه أمارات الخوف والرعب، وكان يهلوس بمفردات لا ترابط بينها.

عرف كلّ من آرشا ونازار، لماذا لم يعد أعضاء الوفد إلى وان، فبعد أن قرّر أخو آرشا الهروب من مدينة ديار بكر مع بعض الشباب الأرمن، إثر الدعوة إلى المشاركة في الحرب، كانت وجهاتهم مختلفة، وقد اختار هو اللجوء إلى مدينة وان، حيث يمكنه التخفّي في بيت أخته، أو في مكان ما في بستان التوت، أو في مصنع خيوط الحرير.

كان لا يزال مصعوقاً، فما رآه في الطريق يفوق الوصف، وربّما كان ذلك من بنات خياله، أو أمراً له علاقة بالجنّ. خارج القيصرية وعلى سفح واد منعزل، شاهد جماعة يعتقد بأنّها من قُطّاع الطرق، يحملون الفؤوس والهراوات، ينقضون على رجال عزّل، ينكّلون بهم، ويقطّعون أوصالهم. وهناك وقف كالمعتوه، يستمع

إلى أصوات الوجع تختلط بأصوات النشوة. مرّت أيّام على مغادرته القيصرية، إلى أن أصبح على مقربة من وان، حيث شاهد أجساد عُراة مقيّدة بحبال، لا يدري إن كانوا أمواتاً، لكنّهم كانوا على مقربة من حُفر معدّة للدفن.

أصبح أخو آرشا مريضاً. كان يهلوس أحياناً ويرتجف أحياناً أخرى، وارتفعت حرارة جسده، وصار يتعرّق، ويدخل في نوبات بكاء، فيبدو بقامته التي هدّها الرعب أشبه برجل آخر لا علاقة له به.

تلاحقت الأخبار، لم تبقَ مدينة في تركيا إلاّ وأصابها الموت. وتصاعدت أصوات النواح من كلّ المدن، إذ لم تنج مدينة أو عائلة من الموت المدروس، ودبّ الرعب في قلوب الأرمن.

كانت آرشا خائفة، على أخيها من جهة، وعلى وضع الأرمن العامّ من جهة أخرى، وربّما لم تصدّق كلّ ما تسرّب من أخبار، أو أن صعوبة التنقّل جعلتها تكذّب ما تسمعه، فكيف يصل كلّ ذلك ولا من وسائل لإيصالها، فهل تأتي متأخّرة عن موعد وقوعها؟ أم أنّ هنالك من يعمل في بريد الدولة، ويطّلع على البرقيات التي تخصّها، فينقل الأخبار ببساطة إلى الناس؟

خلال أيام أعلن جودت بك ضرورة تجنيد آلاف الأرمن، من أصحّاء البنية. كان هذا أول عمل يوقع آرشا في رعب حقيقي، فهذا يعني أن مدينة وان ستقدّم شبابها للموت. وإثر اجتماع ضمّ وجهاء الأرمن، جهّزوا

مئات من شبابهم، وقرّروا دفع البدل العسكري عن الباقين، غير أن جنون جودت بك قد بلغ أوجه، فهدّد بثورة قادمة يقتل فيها كلّ الأرمن المتمرّدين، بمن فيهم الأطفال.

اشتعلت الثورة خلال أيام. واستغل الجنود الأتراك الفرصة فقاموا باعتقال الكثير من نساء الأرمن، عندها دبّت النخوة في الشباب الأرمني فاندفعوا لنجدتهنّ، فقُتلوا رمياً بالرصاص، وفُتحت النار على الأحياء الأرمنية، واشتعلت المدينة، وبدأ الحصار المنظّم.

أصبح نازار عصبياً وهزيل البنية، وبدا بائساً كأكثر ما عُرف فيه من بؤس. لعن الألمان ألف مرّة، فألمانيا هي الدولة الحليفة لتركيا، والوحيدة القادرة على ردعها، لكنّها عوضاً عن ذلك شدّت أزرها ومنحتها الضوء الأخضر. أمّا الدول المحاربة لتركيا، كفرنسا وإنجلترا، فلا تستطيع التدخّل أو إيقاف الاضطهاد، على خلاف أميركا آنذاك، فقد كانت دولة محايدة، ومن الدرجة الثانية من حيث الأهمية في المجتمع الدولي، وكانت دولة مسالمة، تجلّت سياستها في المبادئ التي أعلنها رئيسها ولسن آنذاك، والتي تستند إلى حقّ الشعوب في تقرير مصيرها.

كم اختلفت الأمور يا نازار؟ هكذا تمرّ عشرات السنوات، وتعبر ذاكرتها كما يحدث دائماً، فهل تخبره بما جدّ على الساحة السياسية؟ وكيف اختلفت الأمور؟

مرّت تلك الأيام كأنّها تمرّ توّاً، كان عدد شبّان الأرمن آنذاك يقارب المئة والخمسين، بحوزتهم حوالى 300 بندقية، ومع هذا فقد حاربوا باندفاع كبير، وتصدّوا للمئات من رجال جودت بك. يومذاك حضر جيش من روسيا لمساندة الأرمن، ونجحوا في ردع جيش جودت بك، وأطلق على تلك الحرب اسم ثورة وان.

- ماذا قلت يا لورا؟

كان هذا صوت أبي الذي حضر فجأة، وقبل أن أجيب قال ساخراً:

- أرأيت؟ هرب خالي من الخدمة، وجدّتك تقول إنّه مواطن ملتزم، أمّا روسيا فتساند الأرمن علناً، وهم يقدّمون لها الولاء، فهل ينبغي على التركيّ أن يتخاذل؟

سحبني أبي بشدّة، فأجبت بطريقة جِدّية لا تخلو من اللوم:

- من حقّ التركي الدفاع عن وطنه، ومن حقّ الأرمني العيش بأمان في وطنه ووطن أجداده. قد يكون بعضهم موالياً لروسيا، كما يوجد موالون في كلّ مكان، لكنّ معاقبة جميع الأرمن كانت أشدّ قسوة ممّا نعرفه أو نسمع به.

ازداد الوضع سوءاً، ففي أيام أخر، أحرق الكثير من قرى الأرمن المجاورة، وقيل إنّ عدد القتلى فاق الخمسين ألف قتيل. لم تنفع توسّلات الكاهن بالتروي، فكانت ثورة وان الذريعة التركية للحرب والإبادة، فقد اعتُبر أرمن وان ثوّاراً ضد الدولة العثمانية، ورمزاً

لخيانة الأرمن لها، وبالتالي على الحكومة التركية سحب الأسلحة من أيدي الأرمن، أمّا من لا يسلّم أسلحته فعقابه الموت.

لم يكن بحوزة نازار أسلحة، لكنّ الفرمان شمله، وعليه تسليم الأسلحة وإلاّ عُوقب بالإعدام.

- بِع مصاغي يا نازار واشترِ أسلحة من جيراننا الأتراك.

لم يردّ. لكنّه في ذلك المساء ألمح إلى أنّهم سيحتاجون إلى تلك المصاغ في ظروف أقسى.

قبل أن يمرّ الصباح دبّ صوت بوق في شوارع وان، وتُليت أسماء رجال عليهم الحضور في الصباح الباكر، إلى ساحة المدينة الرئيسية، للالتحاق بالجيش التركي المحارب. كان اسم نازار بينهم.

- هل حارب نازار مع الأتراك؟

من يدري؟ تلك الليلة كانت آخر لقاء بينه وبين أسرته التي غاب عنها إلى الأبد.

حدثت أمور مرعبة في أيام قليلة، فما إن غاب نازار حتّى دخل الدرك إلى البيت، اعتقلوا أخا آرشا الذي كان واهناً، وأخذوا كل ما اعتقدوه هامّاً ليوزّع على رجال المخفر.

- هل سرقوا إسوارتك يا جدّتي؟

- لا.

- إذن سرقها الأربعون حرامي؟

أخبار كثيرة أوقعت الأرمن في رعب، جعلتهم يتحسّبون لكلّ حركة أو خبر. صاروا يستقون المعلومات دون معرفة حقيقتها، وأكثرها عمّا حصل للرجال؟ وأين أخذهم العسكر التركي؟ أخبار تقول إنّهم عمّال على الطرقات، وأخبار تقول إنّهم مرافقون للعسكر التركي، يحملون أمتعتهم، ويقدّمون لهم الخدمات.

غابت نظلة، لم تعد تزور آرشا بعد أن قدّمت نصائحها، ولم ترها بعد ذلك اليوم. أمّا أظنيف التي لم تنقطع زياراتها، فقد أخبرتها أنّ يومهم يقترب، أمّا كيف فلم تكن تدري. نصحتها قائلة:

- افعلي كما سأفعل يا آرشا. اشهري إسلامك تسلمي بروحك.

- لست ضدّ أيّ دين يا أظنيف، لكنّه أسلوب بشع، سأحاسب نفسي دائماً على انتهازيّتي وأسباب وصولي إلى تلك الغاية.

وأضافت في حزم:

- لن أفعل هذا ولو كلّفني الموت.

لم تكن آرشا تدري آنذاك أنّها ستلامس حدود الموت مئات المرّات. كان التهجير المنظّم أثناء ذلك يطبخ في أذهان باشوات تركيا وزعمائها إذ عمّت الفرمانات أنحاء بلاد الأناضول، وكانت الأساليب واحدة. أمّا الوعود فتشابهت، فالإجراءات موقّتة، وما يحدث لا علاقة له بإبادة الأرمن، ولذلك على الجميع الانصياع لرغبة الدولة. وبالتالي عليها انتظار عودة زوجها، ومعرفة ماذا

حلّ بأخيها؟ كان هذا أكثر الآمال التي تدفعها إلى تصديق تلك المزاعم.

هل كذب المؤرّخون؟ أم هل أستطيع نقل بعض قراءاتي، ودسّها بين السطور دون أن أُتّهم بالكذب؟ تلك الكتب وتلك الصور وأحاديث جدّتي هل كلّها متجنّية على الحقيقة؟

- ما بك يا لورا، ألن تكفّي عن القراءة؟

قلت لجدّتي ذات مرّة:

- لماذا لم يتعلّم أبي؟

لامست وجنتي بكفّها المخشوشنة وقالت:

- ساعدني على إعالة سيما وآفو.

أنهى أبي تعليمه المدرسي، يوم هُجّر من بلاد الأناضول، انتهت فرص المتابعة لديه، ولم يدخل مدرسة بعد ذلك. حين يتحدّث تبدو لغته متقطّعة، أو خليطاً من العربية والأرمنية والتركية. تلك المفردات التي حفظها في طفولته، وبقيت تعبّر بعفوية وبساطة، يدسّها بين السطور، لتبدو أحلامه تترعرع هناك، حيث ولِد وقضى أجمل مراحل عمره. هنالك قرب مياه البحيرة، سيبني «يالياً» من خشب، تضحك جدّتي وتقول: بيتاً يا واهان. ويصرّ في أيام العيد، على وجبة من «البلاف» مطبوخة بالأرزّ والسمن واللحم والبهار الأحمر.

- ما الذي تذكره عن تلك الأيام يا أبي؟

يذكر أبي أدقّ تفاصيل طفولته، لكنّ عالمه آنذاك كان بعيداً عمّا يدور في أماكن أكثر أهمّية، هنالك في جمعية الاتحاد والترقي، حيث تُحاك الخطط وتُطرح الأفكار بحثاً عن أشدّ الأساليب إيلاماً، لتنفّذ بأقسى الطرق، وتتدفّق أفكار جودت بك، وهو صاحب الخبرة الواسعة في التعذيب قائلاً:

- ندقّ حوافر الأحصنة على أقدامهم.

ويقول آخر:

- الأفضل نفيُهم.

- بل إبادتهم.

- الديموقراطية تأمر بالنفي.

- إلى الجنوب. سيموتون جوعاً وعطشاً، أو على يد قُطّاع الطرق.

استوى جودت بك كالمنتصر. قال:

- هذا ما نريد، تهاجمهم القبائل المتوحّشة، وحلم أفرادها تقطيع أوصال الكفّار، فقتل الأرمني الكافر والتشفّي منه سيجعل للقاتل ثواباً عند ربّه.

تسأل أظنيف جدّتي:

- ما أخبار أخيك يا آرشا؟

- لا أدري.

كانت أظنيف تدري، فقد سيق مع بعض الرجال إلى خارج المدينة كعمّال سخرة، وما إن وصلوا إلى منطقة منعزلة، حتّى رُبطوا بحبال وأُجهز عليهم. يقول الخبر إنّ دويّ طلقات البنادق عمّ المكان.

- كلّ الأخبار سيّئة. الأرمن يموتون دون رحمة، يساقون إلى حتفهم بالمكر والخداع.

قال كاهن الأرمن أكثر من هذا، فقد ذهب إلى الحاكم وطلب إليه الرحمة لحماية العمّال، الذين تندبهم الحكومة لشقّ الطرق، وتطول فترة غيابهم، فأعطاه الحاكم كلمة شرف، لكنّ الوعود ذهبت أدراج الرياح. فشل الكاهن في مسعاه، وقُتل ما يقارب الألفي أرمني، ورميت جثثهم في الكهوف، ونقل الخبر من استطاع الهرب، ولحقت بهم دفعة أخرى، باتجاه ديار بكر، وعانى هؤلاء قسوة الجوع والعطش. كان هذا من ضمن الخطة، إضعاف المقاومة، كي لا يقوى أحد منهم على الهرب.

لم يبق من بيت في وان إلاّ وسيق أحد رجاله إلى المجهول. وكانت أخبارهم تتسرّب بعشوائية، فالاحتمالات متعدّدة، وكلّها تجعل الذعر يحلّ في الأوصال، كما حدث في سجن القلعة، حيث عُذّبوا بقلع الأظفار، أو الكي بالحديد المحمّى والزيت المغلي، أو صُلبوا بعد تقطيع أجزاء من لحوم أجسادهم، وهم ينادون المسيح لإنقاذهم.

عدت إلى قراءة آية من سورة المائدة في القرآن الكريم: «مَن قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتلَ الناسَ جميعاً».

وكرّرت قراءة ما قاله أبو بكر الصدّيق: «إذا ظفرتم بعدوّكم فلا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تحرقوا

زرعاً ولا تذبحوا دابّة، وستجدون رهباناً في الصوامع ترهَبوا لله فدعوهم ولا تقتلوهم».

غاب كثير من الرجال، ولم يبقَ إلاّ ضعيف البنية، أو الشيخ الهرم. أمّا الأطفال فكانوا إلى ذلك الوقت مبعدين عن المخطّط، كما كانت النساء.

12

لم تكن أظنيف متزوّجة، ولم تعد تفكّر في الزواج بعد فشلها في الارتباط الأول. كانت جميلة المظهر، هادئة ورصينة، تحبّ القراءة وتحاول كتابة الشعر. لكنّ الأحوال اختلفت، نسيت القراءة والكتابة وقول الشعر، وقلّت زياراتها شيئاً فشيئاً، إلى أن غابت أياماً. جاءت نظلة بعد غياب، بدت متخوّفة وعلى عجل. كانت تحمل بعض الأخبار، أحدها يقول إنّ أظنيف قد اعتقلها الدرك العثماني، واتّهمت بالمقاومة والتمرّد، بسبب العثور على سلاح كان يمتلكه زوجها السابق، وخبر يؤكّد لجوءها مع بعض الفتيات إلى الجبل، هرباً من الدرك، بعد تعرّض أكثر من فتاة وامرأة للاغتصاب.

- ماذا تقولين يا نظلة؟

- لا شيء. أو قد تكون اعتنقت الإسلام، وهي في مكان آمن.

- لا. لم يحدث هذا.

أسرّت نظلة إلى آرشا آخر الأخبار، فبعد أن سمع الوالي عن رغبة امرأة أرمنية في اعتناق الإسلام رفض الطلب بصرامة.

- لماذا؟ كثير من العائلات لم تُرفض طلباتهم؟

- صحيح! لكن! أريد أن أسرّ إليك أمراً، سيهجّر كلّ الأرمن من بلاد الأناضول.

- وبيوتنا؟ وأعمالنا؟ لمن نتركها؟

- قد تستدعي الحكومة عرباً من الجوار، أو تقدّمها هديّة لبعض القبائل الكردية.

كان هذا ضمن المخطّطات المرسومة، أكّدت نظلة على هذا، وكانت تحبس دمعة وهي تغادر بأسى، تاركة آرشا في ذهول.

توجّست آرشا شرّاً، فهي تحمل من طفولتها ذكريات أليمة. كانت أخبار ذلك الصيف الحزين ترد إلى سمعها كأحاجٍ لا حلّ لها، كانت في التاسعة من عمرها آنذاك، وكانت تسمع مفردات لها علاقة بحزب يُدعى الهنشاق، وجبال تُدعى ساسون، فتستمدّ الخوف من الوجوه، والرهبة من العيون، وتترك العنان لخيالها، فتبكي لأنّها ستفقد أُسرتها، أو لأنّ يداً ستقبض على عُنقها غير آبهة بدموعها أو بتوسّلات أمّها أو أبيها، فتتقوقع في فراشها تبحث عن الأمان.

عرفت آرشا حين كبرت، ما لم تستطع فهمه يوم كانت صغيرة، واستعادت في ذاكرتها ذلك اليوم الذي قبضت الدولة فيه على بعض زعماء الحزب في ساسون، ثم وسّعت خططها، محاولة القبض على بقيّة الزعماء. كان أرمن تلك المنطقة، من رعاة وجبليّين، ردّوا على الهجوم بشراسة، فقتلوا كثيراً من الجنود الأتراك، فثارت حفيظة السلطان، وأصدر أمراً بقمع العصيان، فكانت بداية الشرارة، التي حرّكت نخوة قُطّاع الطرق، فهبّوا بتحريض من الرؤساء وباسم الله لقتل الكفّار،

فنهبوا وانتهكوا الحُرمات واغتصبوا النساء، وقضوا على ما يقارب الثلاثة آلاف أرمني.

التاريخ يعيد نفسه من جديد. المآسي تمتد من ساسون إلى وان، ومن بتليس إلى ديار بكر، ومن ترابيز إلى أرضروم. تعدّدت الأسباب الهامَة والتافهة التي تتكفّل بقيام المذابح، وكان أفظع تلك الجرائم حرق كاتدرائية المدينة بمن احتمى فيها.

لكنّ ما حدث في مناطق أخرى من البلاد مختلف عمّا يحدث في المناطق المتخلّفة، فقد احتمى الأرمن عند المسلمين الأتقياء، فكانوا لهم الحُماة الحقيقيين، وكان الكاهن يصرّ على أنّ ما يحدث عندهم هو نتيجة الجهل في الدين وقِلّة الوعي، وأنّ المسلم يحترم المسيحي، كما يحترم المسيحي المسلم، ويتساويان معاً في الإيمان.

قالت آرشا:

- لكنّ الباشوات طلعت وأنور وجمال دخلوا في الإسلام وقُبلت رغباتهم. فكيف لا يرضون لغيرهم ما يرضونه لأنفسهم؟ أم!

- أم ماذا يا آرشا؟

- لا أدري.

- ماذا ستفعلين؟

- لا أدري.

عانقتها نظلة بحنان وغادرت.

لم تبك آرشا ذلك اليوم. لم تأسَ على ما هي فيه، فقد تتابعت الأحداث بسرعة، واحتارت ماذا تفعل، هل تُصدّق ما سمعت أم تكذّبه؟ هل مات زوجها حقاً كما أخبرها الدركي؟ هل انتحر أخوها وهو يساق إلى العسكر؟ ربّما لم يمت أيّ منهما، ربّما هربا، وقد تلتقيهما، أم هل سترى والديها؟ وأختها التي كبرت في قصور الحرملك هل سيتاح لها يوماً رؤيتها؟ أسئلة غابت حين فكّرت في الآتي، ونهضت لتحضن طفليها بجنون.

تقول الأخبار إنّه أُلقي القبض في مدينة استنبول على مئات من مفكّري الأرمن ومثقفيهم، وإنّ أكثر أولئك الرجال ماتوا. وقد فرغت بيوت الأرمن في بلاد الأناضول من الرجال، وأكثر الذين بقوا هم من النساء والشيوخ والأطفال. أكانت تلك الأخبار صحيحة أم أنّها دعوة للخنوع والاستسلام للأوامر؟ فقد تلا المنادي ذلك الصباح فرماناً يأمر كلّ مَن يُذكر اسمه فيه بالتجمّع في ساحة المدينة. كان اسم آرشا بين المطلوبين.

صدقت نظلة في ما قالت، وها هي بداية مراحل التهجير، وكما يفعل المنازع، راحت النساء يتساءلن بصوت عالٍ، ويتحرّكن بجرأة ووضوح، ما الذي يريده العثمانيون منهنّ، أو من أطفالهنّ؟

كان لا بدّ من الانصياع لرغبة الدولة، كما سينصاع جميع المدعوين، فلسوف تقام حفلة كبيرة على شرف المرحلة القادمة، حفلة ذات رتبة عالية، بل هي أهمّ حفلات التهجير والإبادة المنظّمة بإتقان.

ما الذي ستفعله آرشا وهي صفر اليدين؟

أُتيح لها قبل موعد التجمّع أن تجمع بعض الأشياء الغالية على نفسها، ساعة زوجها، إسوارتها، بعض الليرات الذهبية، وضعتها في كيس، وتزنّرت به تحت ثيابها الفضفاضة، ولم تنس جمع القليل من المؤن، البرغل وعُلب المربّى وبضعة أرغفة، واتّجهت ذلك الصباح من صباحات نيسان مع توأمها، كما فعلت بقيّة الأسر، إلى ساحة المدينة، حيث تجمّع المئات واجمين مذهولين.

عرفت هناك مختلف الآراء، منهم من باع ممتلكاته بأبخس الأثمان، ومنهم من رهن بيته، ومنهم من حفر في أرضه الملاصقة للبيت حفرة تتّسع لدفن أشيائه الثمينة آملاً العودة في يوم قريب. وعمدت امرأة ثرية إلى جمع مفروشات البيت والأواني الفضّية والأثرية في حجرة جانبية وأوصدتها، دون أن تدري أن ثروتها منذ الآن لن تتعدّى ذلك المفتاح الحديدي الذي استقرّ في أسفل حقيبتها.

قلت لأبي ردّاً على سؤاله:

- وصلت إلى أكثر الأمور أهمّية، حضارة العرب وما أخذه العثمانيون عنهم، الدين الإسلامي وأبجدية الحروف لكتابة اللغة. لقد حكم الأتراك شعوباً أكثر منهم حضارة.

- كفاك قراءة يا لورا، التاريخ لا يُجدي نفعاً، لقد مرّ زمن على تلك الأحداث.

- أرى عكس ما تراه يا أبي، يجب تسليط الضوء على الشرور والمآسي والنكبات، لاستخلاص العِبر من التاريخ، ولا سيّما تلك الأمور التي تُحدث التوازن في المجتمعات، مثلاً، لولا زعيم الثورة العربية الكبرى، وأكثر أمراء البلاد، لما كان في هذه المناطق أرمني واحد.

- أعرف هذا.

- هل تعرف أنّ شريف مكّة بعث بخطاب إلى الأمراء في الولايات العربية، وإلى شيوخ القبائل، يوصيهم برعاية أبناء الطائفة الأرمنية، وفق ما أمرهم به الدين الإسلامي ورسوله الكريم؟

- أعرف أيضاً أنّ ولاية حلب وأهاليها استقبلوا من كُتبت لهم الحياة بالترحاب، أعطوهم الكساء والغذاء والمأوى، كما حصل لجدّتك ولي.

- وأنت يا أبي! هل كنت تعرف الأوامر التي أتت من وزير الداخلية طلعت باشا؟ وكيف سترحلون ثانية إلى دير الزور، وبذلك يموت من كُتبت له النجاة؟

يمتلك أبي ذاكرة فتيّة، فقد كان طفلاً عندما حدث التهجير، وهو يذكر تلك الفترة بتفاصيلها، لكنّه مصرّ على عدم الخوض فيها، يقول إنّه لا يريد أن يعيش أحداث الموت مرّتين، لا يريد العودة إلى تلك الأيام، إلى ذكريات الموت الجماعي والإفرادي، ذكريات الظلم والقهر والعجز، ذكريات الجهل والتخلّف، يقول إنّه لن يسترجع الذكريات المؤلمة، لأنه يهوى الفرح والحياة البهيجة.

- كما تشاء يا أبي.

يومذاك، أتت أوامر الدولة العثمانية بتهجير الأرمن كجدول متدفّق لا يتوقّف، وذلك بترحيلهم من مراكز مختلفة في الدولة العثمانية في اتجاه الجنوب، حيث تمتدّ الصحراء ووادي ما بين النهرين، التي أصبحت بعد الحكم العثماني أراضي قاحلة ومهجورة، تكاد تخلو من الحياة، عدا بعض القبائل البدوية. بعض الأرمن جرى ترحيلهم من الشمال، عبر الخط الحديدي برلين- بغداد، كما حدث لأرمن زيتون في سيليسيا، إلى أن وجدوا أنفسهم في قلب الصحراء، لِيتابعوا من هناك مسيراتهم مشياً.

كان أبي، دون أن يدري، يسرّب إليّ ما أشاء من معلومات، أو أنّني أقرن بعض كلماته بقصص جدّتي،

فأعيد تشكيلها كما حدثت أو قريباً من ذلك،، فلم آتِ بما تمليه مخيّلتي، ولربّما أضعت بعض الأحداث، لكنّني صدقت في نقل أكثر ما عرفته من وقائع. لم يكن للطمأنينة تلك الأيام مكان، ولم يكن للحق دور، وإن حاول أيّ منهما التسلّل إلى نفس أو أخرى، يولد للحال سيف شرّ، يقطع الخيط الواهي، الذي قد يجعل التواصل أكثر اقتراباً، كما حدث للدركي مصطفى، الذي هبّ لمساعدة محمّد التركي، وأرشده إلى حبيبته أستغيك، قبل وصول القافلة إلى محطة القطار.

لم تتوقف خدمات مصطفى على محمد التركي وحبيبته، فجاهد لمساعدة المهجّرين، مسخّراً مقدرته لجلب السكينة إلى نفوسهم، أو المطالبة بتأمين الراحة، أو القوت لهم، ريثما يصلون إلى برّ الأمان. لكنّ الدركي مصطفى غاب عن القافلة، بعد أيام من تحرّكها.

سأعرف أموراً كثيرة لم تحدّثني عنها جدّتي، سأكتشف ما يتعلّق بعمّتي ريتا وعمّي آفو أيضاً، سأرى الظلم بأمّ عيني، سأعيش الألم والوجع خطوة خطوة، وأعرف أنّني لن أستطيع أن أصرخ أو أحتجّ، فكلّ الآلام لها صوت، عدا آلام الأرمن التي لا يزال صوتها مخنوقاً.

يضحك أبي وهو يستوي في مكانه:

- أراك منفعلة يا لورا، نحن في خير. انسي ما كان.

- هل نسيت أنت يا أبي؟

لم ينسَ، أعرف هذا، وحين شبّه ما حدث لأرمن تركيا وصفهم بالقمح، ففي بداية الحملات عليهم، اختير

أفضلهم كما يحدث في تنقية القمح من الشوائب والزؤان، ثمّ يوضع في الماء المغلي، وينشل ثانية ليترك حتّى الجفاف، ثمّ يوضع في جُرن حجري، ويُدقّ بقسوة إلى أن تخرج عنه القشور.

- بعد ذلك، يُنشر ثانية، ويُطحن بين حجرَي الرَّحى.

يجب ألاّ أحزن، هكذا أرادت جدّتي، لا أذكر أنّني رأيت دمعتها، ولا أذكر أنّها ندبت أحداً ممن فقدتهم، وهي التي أضاعت كلّ أسرتها، زوجها وأختها وأخاها وأمّها وأباها، ثمّ ابنتها ريتا، وأدرك الآن أنّها كانت أكثر حزناً وألماً ممّا أتصوّر، وأنّها دفنت أحزانها إلى غير رجعة. فهل أستطيع تجاهل ما آلمها تلك الأيام؟

غصّت الساحة بمئات الفلاّحين من الأرمن البسطاء، بوجوههم الكئيبة، وعيونهم ذات النظرة الواحدة، فلا أحد منهم يعرف لماذا هو هنا، وربّما استشفّ الأسباب، لكنّه لا يريد التصديق، فبدوا واجمين. سمعت آرشا مفردات لها علاقة بالشتائم، اللعنة على وان، اللعنة على الثوّار، اللعنة، اللعنة.

وصلت دفعة أخرى منهكة القوى، جميعها من النساء والأطفال وبعض الرجال المسنّين. فكّرت آرشا في الظروف التي يمرّ فيها الأرمن، ولا بدّ أن الرجال كانوا في الحرب أو في أعمال السخرة، غير أنّ اعتقادها لم يكن صحيحاً، فقد لاحظت حالة الرعب التي يعيشها كلّ منهم. بعض النساء يبكين على فقدانهنّ لأطفالهنّ، أحد الرجال المسنّين ينصت حزيناً، عرفت آرشا أنّه يدعى نوبار، وعرفت أيضاً أنّه فقد ابنيه الشابّين في منتصف الطريق، كما حدث لأكثر الأسر التي خسرت أبناءها أو أخوتها، ولا أحد يعرف ماذا حدث لهم بعد أن تمّت عملية الفرز من قِبل الدرك، وسيق بهم نحو جهات أخرى.

خلال ساعة من انتظار مخيف، وصلت دفعة جديدة، أكثرها من النساء وبعض الرجال المسنّين، وقليل من الأطفال. كانت النساء يولولن نادمات، فقد تركن أطفالهنّ بناء على نصائح الدرك، فالجوع والخوف

قادمان لا محالة، في حين اعتقدن بأنّ عدم الانصياع والدخول في الدين الإسلامي قد أنقذ الأطفال وأنقذهنّ، لكنّ الدرك اختاروا أجمل الأطفال والبنات الصغيرات، بينما تمسّكت بعض النسوة بأطفالهنّ، وبالبقاء مع القافلة دون شروط.

امتلأت الساحة ومتفرّعاتها بأناس يجهلون ما سيحدث، وإن بدت ملامح الشكّ في تصرّفات بعضهم، أو من خلال تصرّفات الدرك، وفي كل الأحوال كانت خفقات القلوب بائسة، وكانت النظرات حزينة وتائهة،وقد حلّ الصمت فجأة، لا يخرقه سوى أصوات الأطفال. كانت آرشا تعقد مقارنة بين توقيت دعوة زوجها إلى الحرب ودعوتها مع طفليها إلى التجمّع والترحيل، فهل هي حقاً إجراءات موقّتة، ثمّ يعودون ثانية إلى بيوتهم؟ شملت المكان بنظرة واسعة، وألقت نظرة سريعة على الوجوه، كانت وجوه فلاّحين، ونساء أدمى الشقاء أصابعهنّ، وشيوخ هدّ التعب ظهورهم، وصبايا واجمات، كل هؤلاء لم يفعلوا ما يغضب الدولة العثمانية، كانوا موالين لحكم السلطان عبد الحميد، وبعده للباشوات، وإذا كان للدولة أن تعاقب المتمرّدين فلماذا يُعاقب الفلاحون الأبرياء المساكين؟

وكز الدركي خاصرة الهرم نوبار بقبضة البندقية، وأنذر الجميع بحمل الأمتعة والتأهّب السريع، فالشاحنات ستقلّهم إلى محطّة القطار، وعليهم حمل ما خفّ وزنه، وليس هو أو أحد رجال الدرك مسؤولاً عمّا

يحملونه من مستلزمات، وإن تطلّب الأمر تركها في أماكنها. تلك اللحظة ظهر الذهول على الجميع، كانت الشاحنات خاصة بنقل الماشية في أنحاء البلاد التركية.

كانت حمولة آرشا أقلّ حجماً قياساً إلى حمولة البقيّة، وكان باستطاعتها أن تحزن وأن تتأثّر بحالة المسنّين، واكتشاف ما أصاب الجميع، وهم يصعدون بصعوبة إلى عنبر الحافلة. كان الدرك يأمرونهم بالاصطفاف جنباً إلى جنب، ثمّ بالتجمّع والالتصاق، ليتسنى استيعاب أكبر عدد منهم، إلى أن أمر الدركي بالمسير.

لم يدرِ أحد إلى أين؟ ولم يتجاسر أحد على السؤال، فكل الأسئلة والاحتجاجات عقيمة، وما عليهم سوى انتظار تنفيذ ما خُطّط لهم. كان الكبار متوجّسين من الآتي على عكس الأطفال، الذين ما فتئوا يبحثون عن التسلية واللعب.

توقفت الشاحنات واحدة تلو الأخرى، وأمر الجميع بالهبوط، فتدفّقوا بعشوائية، وكانوا يتساقطون على الأرض كالخراف، فيما كانت بقية الشاحنات تتقيّأ الركاب، وترمي الخيم المخصّصة لهم، وتعود أدراجها لحمولة جديدة.

انتشروا على طول الطريق، مرغمين على إطاعة الأوامر، لم يحتجّ أحد منهم، لم يشتك أو يتمرّد، لا فوضى، لا نحيب، كانوا حزانى وبائسين، وكان صوت الدركي التركي الآمر يردّد مزهوّاً بأنّ لديه وتحت إمرته

ثلاثين ألف أرمني. وعلى مدّ البصر، كانت الحاويات تُفرغ محتوياتها. قيل في البداية إنّ الحكومة صرفت لكلّ شخص من الأرمن رغيف خبز في اليوم، وكان الجميع ذاهلين ينتظرون رحمة الدرك والمسؤولين.

لم تعد آرشا تدري أين هم أو إلى أين سيتّجهون؟ إلى الشمال أم الجنوب؟ إلى الشرق أم الغرب؟ كلّ ما عرفته أنّها ستعبر بين الجبال، مع قافلة من نساء وأطفال، وبعض رجال مسنّين. لم تستطع أن تُحصي أعدادهم، كما أحصت عدد رجال الدرك وكانوا بالعشرات. أمرهم هؤلاء بالمبيت حيثما هم، ريثما تصل بعض القوافل التي كانت في طريقها إليهم. علّقت امرأة عجوز راجية ألاّ يطول موعد قدوم القطار، فضحك نوبار الهرم ساخراً وقال إنّ القطار هذه الأيام يفتقد إلى الفحم الحجري، فالدول المتحاربة استهلكته، ولذا بات يعمل على الحطب، وقد لا يأتي، أو سيأتي متأخّراً. كان الدركي يراقب نوبار وهو يحقن «بابور كاز» بيد ويمسكه من الناحية الأخرى بيد، ثمّ يشعل النار في أعلاه.

كانت لنوبار رؤيته، فهو مطّلع منذ شبابه على معالم المنطقة، فالقسم الأناضولي من ضواحي القسطنطينية يقع إلى الجنوب الشرقي، ويمتد إلى حدود الصحراء السورية، حتّى مدينة حلب. تتخلّل هذا الخط فجوات، عبر سلاسل جبال طوروس وأمانوس. كان متأكّداً أنّهم سيدفعون بهم نحو الجبال، سيراً على الأقدام، قبل أن

يُساقوا إلى الصحراء، أو يتجهوا بعدها إلى بلاد الموصل وكركوك، أو إلى ولاية حلب في بلاد الشام.

كان عليهم المبيت تلك الليلة في العراء، فقد اكتشفوا أنّ الخِيَم التي وعدوا بها، والتي رافقتهم في السفر، قد اختفى معظمها، وارتهن الحصول على المبيت في إحداها بتقديم الثمن بما يحملون من مال أو مؤونة. كانت آرشا خائفة من الآتي، فحضنت طفليها وصمتت على مضض. ما إن بزغت خيوط الشمس الأولى حتّى كانت أصوات الدرك تعلن واجب التحرك السريع.

قبل التحرّك، سرى خبر أعلنه الدرك وقدّموا من خلاله النصيحة، وهي أن المرافق لهم، وهو أحد الزعماء الأتراك، يدعى البك ويأتمر رجال الدرك بإمرته، وهو يتولّى حماية القافلة، التي ستتجه نحو الجنوب، ومن أجل إتمام المهمة بسلام عليهم جمع مبلغ من المال لتأمين وسائل النقل للجميع. وراحوا يجمعون ما استطاعوا، حتّى وصل المبلغ إلى 400 ليرة ذهبية، قدّموها إلى البك وهم متفائلون، غير أن البك ذهب ولم يعد.

علّق الهرم نوبار بأنّ البك سرقهم مرّتين، مرّة من الحكومة ومرّة حين أخذ الليرات الذهبية وهرب.

حين سُمِع صوت البوق منذراً بالتحرّك، تجمّع أفراد القافلة في خطوط شكّلها لهم رجال الدرك، واكتشفت آرشا ازدياد العدد عمّا قبل. حين أمروا بالانطلاق لم يكن أحد منهم يدري إلى أين يتّجهون، لكنّ أكثرهم توجّس

شرّاً، ولم يستطع الرعب الذي حلّ بهم أن يجلب الرحمة لهم أو الشفقة. انصاع الجميع للأوامر وساروا كحيوانات أليفة، فالخوف حوّلهم إلى قدريّين مستسلمين. بدت القافلة أشبه بسجن متحرّك، حرّاسه لا يفرّقون بين المذنب والبريء. وهذه القافلة تُشبه جلاّديها بخضوعها للأوامر، والجلاّدون يشبهون أفراد القافلة بخضوعهم لأوامر أسيادهم.

كان منظر القافلة مرعباً. ربّما لم تخطر ببال أحد فكرة الموت على الطريق، أو القتل أو التعذيب، فالجميع لا يشكّلون أيّ خطر على الدولة التركية، أكانوا نساء أم شيوخاً أم أطفالاً، أمّا إلى أين هم ذاهبون ولماذا؟ فذاك ما لم يعرفه أحد.

أتمّت آرشا ربيع ذلك العام الثلاثين من العمر، لكنّ أيّامها الأخيرة في وان جعلتها تبدو أكبر من عمرها بسنوات. أمّا توأمها الذي لم يتعدّ كلّ منهما العاشرة من عمره فأعلنا هذا الصباح حاجتهما إلى الراحة، فهما ينامان في العراء، بعد أن أخفى رجال الدرك الخيم التي وعدوا بها، وقد أفسد اليومان الماضيان مواعيد النوم والاستيقاظ عندهما، واقتصرت أنواع الطعام على الخبز الجافّ والأطعمة المجفّفة.

كان ذلك المساء مرعباً، كان جديداً ومختلفاً عن سابقيه، إذ ظهر بعض الرجال فجأة، واندسّوا بين أفراد القافلة، وخلال دقائق اقتيدت بعض الصبايا اللواتي لم تنفع توسّلاتهنّ أو صراخهنّ، أو ترجّي نوبار وبعض أفراد

القافلة في إنقاذهنّ. قيل إنّ رجال الدرك باعوا بعض الصبايا لقطّاع الطرق، وقيل أيضاً أن الأوامر أتت من وزارة الداخلية، إلى القبائل المنتشرة على الطريق، لسبي بعض نساء الأرمن. قال نوبار إنه خائف من الآتي، فقد يتزوّج هؤلاء من الفتيات الأرمنيات، وما سيحدث قريباً يخيفه.

- من قال هذا يا نوبار؟

- الدركي مصطفى، إنّه شابّ طيّب، وسيكون لنا معيناً.

- وهل يوجد مصطفى آخر؟

- ربّما. لِمَ لا؟

أتى نيسان هذا العام بشعاً ومرهقاً. فالرحلة من بدايتها تنذر بالمآسي والأحزان، والحرّ مزعج. وقد علّق نوبار قائلاً: إنّ الطرق عبر المرتفعات الجبلية وعرة، وقد يتوقّفون أكثر من مرّة، صعوداً أو هبوطاً، قبل الوصول إلى محطة للقطار، كما أنّ أحد الرجال المرافقين للدرك سرّب معلومات عن طول الرحلة تفيد أنّها ستمتدّ إلى نهاية الصيف. أصبحت الأجواء مرعبة، فإلى أين؟ وأين هي الوجهة التي يحتاج بلوغها إلى مسيرة أشهر؟

15

بدا التعب خلال أيام على الأكثرية، فيما ازدادت ملامح القسوة على وجوه الدرك والحرّاس، وبالتالي شكّلت القافلة خطوطاً مختلفة المواصفات. ولم تمض ساعات أُخر حتّى أصاب الوهن جميع أفراد القافلة، إذ مُنعت عنهم الراحة، ولا مجال للشكوى ، فمن يشكُ يُضرب ضرباً مبرّحاً، هذه أوامر «البك». نصحوا الجميع برمي الأمتعة التي تشكّل عبئاً، أو ترك الأطفال للقبائل التي سيلتقونها قريباً. كانت إحدى النساء الحوامل تتأوه. وضعت آرشا باطن كفّها، دون أن تدري، فوق أعلى بطنها، وشكرت ربّها لأنّها لم تكن حاملاً، وراحت تحسب المسافة بين وان وبلاد الرافدين، لتجد أنّهم ما زالوا في بداية الطريق. خافت آرشا، كيف ستطعم توأمها؟ من أين ستأتي بالزاد؟ أمّا الليرات التي بحوزتها، فقد لا تكفي ثمن الخبز الذي يبتاعونه من الحرّاس.

علت أصوات الدرك فجأة، وكان عليهم أن يتحرّكوا سريعاً، فنهضوا على مضض، وبدوا كنعاج بين رعاة قُساة. أضحت التحرّكات سلسلة من الرعب المتواصل، وأصابت العدوى الأطفال فباتوا يرتجفون كلّما مرّ دركي. بكت ريتا ابنة آرشا لأوّل مرّة، قالت إنّها تريد أباها، ولحق بها أخوها واهان، يريد أباه أيضاً.

اجتاحت بقيّة الأطفال نوبات بكاء، في تلك اللحظة انهارت إحدى النساء المتقدّمات في العمر، وارتمت على

الأرض، وعلى الأثر حضر الدركي ذو الشاربين المتدلّيين، وصرخ بها أن تتابع السير وإلاّ قتلها، رجته قائلة إنّها منهكة ومريضة، وعليها أن ترتاح لدقائق، فهدّدها ثانية، فلم يكن منها سوى الرد بأسى: اقتلني إذن.

صوّب الدركي بندقيته نحو صدرها، وأطلق الرصاصة التي لجمت أفواه الجميع.

حدّقت آرشا في عيني الهرم نوبار:

- هل مصطفى حقيقة أم وهم؟

حين سقطت دمعته، تساءلت هل هي لفقدانه ابنيه، أم لاختفاء مصطفى؟

- هل مات؟

أصبحت القافلة قافلتين، وتحوّلت بسرعة إلى ثلاث قوافل، إلى أن غابت أواخرها عن الأعين، فقد سقط أفرادها من الإعياء واحداً إثر الآخر. كانت الأوامر خلال ذلك تقضي بمتابعة المسير، فتترك القافلة بقاياها في أماكنها، إلى أن يأتيها الموت.

هدّ التعب أفراد القافلة دفعة واحدة، وتوقّف من في مقدّمة الرتل دون استئذان، وكأنّهم اتفقوا على ساعة للراحة، فلبّى الجميع تلك الدعوة، واقتعدوا الأرض وهم يئنّون. حدث ذلك على مرأى من رجال الدرك، الذين أبهجهم منظر القافلة وهي تشرف على الموت، حضنت آرشا توأمها، وراحت تتساءل، لماذا هم هنا؟ ولماذا

يحدث لهم ما يحدث؟ وهل خُطّط لإبادتهم كما حدث لأرمن أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟

ألقت آرشا نظرة مطوّلة إلى الوراء، كانوا أشبه بِرَتلٍ من حيوانات تُساق إلى حتفها. شعرت بشيء حادّ كنصل خنجر يخترق أضلعها، هؤلاء النسوة، هنّ زوجات رجال خدموا دولة، وقدّموا لها قدراتهم التي لا تستحقّها، هنّ أمّهات رجال ساهموا بكل ما أوتوا من عزم في نهضة بلادهم، هنّ أخوة مثقفين، وبنات علماء، وزوجات رجال مهمّين.

غابت الشمس وأظلمت الدنيا، وما عاد يسمع سوى التنهّدات، أو شكوى الأطفال، وتحوّل البكاء والعويل إلى أنين، فلم يعد لديهم من قدرة على بذل شيء، وأعلنت أجسادهم عجزها عن المقاومة. حاول أحد الأطفال البكاء، لطمه دركي بعقب بارودته، فصمت وأطرق للحال، بينما جسده الضئيل يرتجف. شتمت آرشا ذلك الدركي في سرّها، وتمنّت له الموت، أو أن يعاقبه الله على ما يفعله بهم، لكن الله كان غافلاً عنهم.

حدثت أمور كثيرة في الأيام التالية، أسقطت المرأة الحامل، ومات الجنين إثر نزف شديد، وجاءت أوامر الدرك بمتابعة السير فتفرّقت النساء من حولها، هنّ كالمجانين، بينما كان رجال الدرك يتضاحكون وهم يقضمون الخبز، ويروون ظمأهم من زجاجات الماء، ويسكبون ما تبقّى فوق الأرض العطشى. كان المنظر

مرعباً فقد هرع أحد الأطفال، وراح يعصر قبضة تراب، محاولاً ضخ قطرة ماء منها.

كان باستطاعة كلّ منهم رؤية مصيره المحتوم، وخصوصاً أنّ الطريق إلى محطة القطار ما زال بعيداً. وعليهم حثّ الخطى إذا أرادوا الوصول. هذا ما أعلنه الدرك غير مرّة، وهم يتناوبون على إرهابهم، مُقبلين أو مُدبرين، في ذراع كلّ منهم بارودة، وفي يده الأخرى سوط، وكانوا يختارون السوط من فروع الشجر، لاستعماله عند الحاجة.

ما عادوا يحسبون في أي يوم هم، أو متى سيصلون، وكانوا في حالة بائسة من الجوع والعطش، وخصوصاً بعد أن نفدت منهم المؤن وتخلّصوا من جميع الأمتعة يوماً بعد يوم، كما فعل نوبار الهرم بأمتعته، وكما ألقى بابور الكاز في الطريق، أمّا الدرك فما زالوا يحتفظون بالخيم، التي وعدوهم بها في بداية الرحلة، وكانوا يتناوبون على النوم والحراسة، ويحرمون الجميع من الراحة. كانت آرشا تنام قليلاً ثمّ تفيق مجفلة، وراودها اعتقاد بأنّها تغفو وهي تسير مفتوحة العينين، وحين اكتشفت ذلك ارتعبت وأصبحت كالمعتوهة. التفتت إلى توأمها تعاين وجهيهما الهزيلين وثيابهما الوسخة، فأجفلت ولم تستطع البكاء. وتساءلت ما الذي تفعله بإسوارتها الذهبية وساعة زوجها، هل سيسطو عليهما الدرك؟ فكّرت في نوبار الهرم، الذي لا يقترب الدرك منه،

وقالت إنّها ستترك أمانتها عنده ريثما يصلون إلى برّ الأمان.

أصبحت كسرة الخبز باهظة الثمن. وكانت نظرات الدرك المتشفية منهم تنتظر المزيد، فيما كان بعضهم يقبضون ثمن الماء، ثمّ يسكبونه فوق التراب وهم يقهقهون. توسّلت إليهم إحدى النساء، ركعت تلثم حذاء أحدهم، ولكنّه رماها بركلة من حذائه فانقلبت على ظهرها.

سرى خبر يقول إنّ قافلة قادمة من مدينة ديار بكر. حيث محطة القطار، وبالتالي فقد يلتقونها. كلّما تذكّرت آرشا ديار بكر تتذكّر طفولتها، ويعتصرها الأسى، فهي لن ترى أخاها، وقد لا ترى أباها، لكنّها قد ترى أمّها. شعرت بالخزي والعار، فكيف ستلتقي أمّها؟ ماذا ستقول كلّ منهما؟ هل هذا هو الحاضر الذي صنعوه؟ أين المستقبل الذي سعوا إليه، هل ستساعدها سنوات عمرها الستّون في رحلتها هذه؟

كانت أعدادهم أثناء ذلك تتناقص، فالموت قد حصد كبار السنّ، أمّا من أصابه الإعياء والمرض وارتمى بقصد الراحة، فكان رجال الدرك ينتهزون الفرصة ويصرّون على تركه في العراء. كان التفكير في الآتي أصعب من كلّ أمر، وربما كان هذا سبباً في تجاهل هؤلاء الأرمن لما هم فيه، أو لما يحدث لهم، مبتعدين عن كل التوقّعات.

- أراكِ شاردة، هل أنهيت قراءاتك؟

لم أكن شاردة، كنت أفكّر فيه وفي جدّتي، وأفكر في عمّتي ريتا، وكم أرجعت موتها إلى طعنة دركي، أو مرض فتّاك أودى بها، كما في قصص جدّتي، يوم وضعت الحزن جانباً، لأرى تلك الأحداث أشباهَ صورٍ متحرّكة، تنتهي لحظة المشاهدة.

- قلت لك، لا تكثري من التفكير، لقد مضى الزمن وانتهى الأمر.

- ما بك يا أبي؟

- فيمَ تفكّرين؟

- كيف اختارت جدّتي مدينة حلب مقرّ إقامتها؟ وكيف وصلت إليها؟ كان من الطبيعي الاتجاه إلى مدينة الموصل في العراق، فالطريق من وان أقرب إلى الجنوب منه إلى شمال غرب سوريا؟

- اسألي جدّتك.

- لا تمازحني يا أبي، لو كانت جدّتي حيّة لما سألتك.

- هذا صحيح، إذن اسألي الجيش العثماني.

قالت إنّ المزاح طغى على شخصية أبي، خصوصاً حين يتعلّق الأمر بتهجير الأرمن، فيحوّل الحديث إلى حدث عابر، وليس ضرورياً الغوص في تفاصيل مضى عليها الزمن. أهي آلام الذكريات؟ أم الخوف المتأصّل في أعماقه، ما يحمله على السكوت؟ اكتشفتُ في تلك

الأيام أنّ الأرمن قصّروا في إيصال قضاياهم، فقد مضى على تهجيرهم عقود من الزمن، وما زالت همومهم مقموعة في نفوسهم، ومدفونة في عُمق التاريخ.

لكنّ عمّي آفو لا يمزح، قد يصاب بالهذيان ربّما بسبب الخمرة، غير أنّ صوته ذلك المساء أتى مترعاً بالتهكّم قائلاً:

- إنّها القوة المزيّفة التي أصابت الأتراك.

قال أبي:

- لم تكن مزيّفة، فبعد قرون من وجود أسطول الحلفاء في الدردنيل، ردّه الأتراك على أعقابه، في وقت لم تتخلّ ألمانيا والنمسا عن التركي الذي شعر بأهمّيته، أو الذي أصبح حليفاً للقوى الأوروبية، وبالتالي لم يعد خاضعاً للوصاية.

تابع أبي بجدّية:

- هذه أمور حقيقية، يحقّ للتركي آنذاك أن يشعر بالثقة والقوّة.

اكتشفتُ يوماً إثر يوم ما هو مشترك بين أبي وعمّي آفو، وأنّهما خبآ في أعماقهما ما لم يجرؤا على البوح به. عرفت من قراءاتي أكثر من ذلك، فقبل تهجير الأرمن عومل اليونانيون من قبل الأتراك بقسوة، واتهموا بالتآمر على تركيا، والتجسّس لمصلحة الإنكليز، وبالتالي نظّمت الحملات ضدهم، فُتّشت بيوتهم بحثاً عن أسلحة، ونُفي بعضهم للعمل في القفقاس، وقيل إنّ الآلاف قد ماتوا من البرد والجوع والعطش، أمّا البعض الآخر فقد أُدخل

الجيش للحرب، وتمكّن غيرهم من الهرب إلى سالونيكي في اليونان.

عاد عمّي إلى التهكّم قائلاً:

- ما أجمل الحرملك والفتيات اليونانيات يجلن في أرجائه؟ أمّا المياتم فغصّت بالأطفال، ربّما أرادوا إنشاء جيش انكشاري جديد.

نهره أبي قائلاً:

- ما بك يا آفو، عاشت البنات في أحسن حال، أمّا الأطفال فقد أُعيد تأهيلهم بطريقة تليق بوطنهم تركيا. هذا أمر تُشكر عليه الدولة العثمانية.

شعرت برغبة في إبداء رأيي، كنت أعرف أن الأتراك عذّبوا اليونانيين، وأبعدوا ما يقارب المئتي ألف نسمة منهم لكنّهم في كلّ الأحوال لم يعرّضوهم لفعل الإبادة.

قال أبي وهو يهزّ رأسه:

- اليونانيون لم يكونوا ثواراً، ولم يقلقوا راحة الأتراك كما فعل الأرمن.

وتابع بثقة:

- كُفّي عن القراءة يا لورا، أصبحت تهذين يا ابنتي.

- لست أهذي، إني حزينة وبائسة، حزينة لأنّ البشر يتصرّفون كالوحوش، وبائسة لأنّ الضعيف لا يرى طريقاً للخلاص.

كيف يفعل أولئك الدرك كل هذا؟ كيف لا يفكّرون في نسائهم وأخواتهم وأطفالهم؟ وكيف هو الله في أعينهم؟ وهل حقاً أنّ الله سيدخلهم ملكوته إن هم نكّلوا بهؤلاء الكفّار؟ أسئلة لا تبرح ذاكرتي، ولا أصدّق أنّ مثل هؤلاء الرجال لا يرون في أمّة الأرمن سوى الكفر والإلحاد، أم لأنّهم يتلقّون الأوامر من مصادر أعلى مرتبة وقيمة؟ أم أنّ الضمائر ماتت منذ اللحظة الأولى؟

ما زال نوبار يستقي الأخبار، وربّما لخبرته الطويلة يعرف متى يشكّ أو يخاف. كان يتنقّل بجسده الهزيل والواهن بين الجموع، يقدّم نصائحه بحزن وأسى، فعلى الصبايا حماية أنفسهنّ، ولم يكن يرغب في نقل الرعب إليهن، ولا يريد إفشاء آخر ما توصّل إليه رجال الدرك، فهو على يقين أنّهم باعوا الصبايا إلى جماعة من قُطّاع الطرق، باعوهنّ دون شروط، وسيسبون أجسادهنّ وما لديهنّ من أموال أو حلي. لم ينقل نوبار لهنّ توجّسه من أنّ قتلهنّ مباح، وإنّما أراد إيصال رسالة احتراس، فهنّ على وشك التعرّض إلى أمر دنيء. كانت آرشا في دهشة، أوَلم يمت مصطفى؟ أم أنّ بين الدرك أكثر من مصطفى واحد؟

لكنّ آرشا لم يعد يهمّها سوى توأمها، اللذين بديا أكثر سقماً وهزالاً. كانت على يقين أنّ رجال الدرك يتعمّدون تجويع الجميع ويتشفّون منهم، ولم يكن لديها ما

تطعمهما، وكاد أن يُغمى عليها وهي ترى إحدى النساء، تُفتّت بقايا روث البقر، المترامي على جانبي الطريق، باحثة عن حبوب لم تهضم، وخلال دقائق لحقت بها بقيّة النساء. كانت آرشا واهنة ضعيفة، وتعرف أنّها جائعة كتلك النسوة، لكنّ منظرهنّ لخّص لها تلك الحالة التي وصلنَ إليها. انتابتها نوبة صراخ، سقطت على إثرها، لتجد أحد رجال الدرك يقهقه فوق رأسها، ثمّ يقترب من أذنها هامساً:

- كم معك من ليرات؟

أمعنت النظر في وجهي الطفلين، قالت:

- ليرتان.

- رغيف خبز وماء.

ذهب ليعود بهما، بينما أخرجت آرشا الليرتين من جيب سروالها الداخلي. رفع الخبز والماء بيده وقال:

- هات بقيّة الليرات.

- لا أملك غيرهما.

رفع السوط بعصبية وأنزله على كتفيها، رمى كلّ من ريتا وواهان جسديهما عليها، وكان الدركي أثناء ذلك يمدّ يده نحو سروالها، فأدارت ظهرها إليه، وأخرجت الكيس القماشي، وقدّمته له بما فيه.

لم يبق مع آرشا ما يقيها شرّ الجوع والعطش، أمّا الدركي فقد سكب نصف الماء على الأرض، وقضم من رغيف الخبز، وأعطاها ما تبقّى، وهو يشتمها ويشتم الأرمن الكفّار.

- هل أعطيته ساعة أبي؟

- اصمت يا واهان. لا تذكرها ثانية؟

- والإسوارة؟

- اصمت.

لم يبق من رغيف الخبز قطعة، أمّا قطرات المياه المتبقية، فقد تنازع عليها الولدان.

في صباح اليوم التالي، قيل إنّ عدداً من الأطفال أصيبوا بحالات إعياء غريبة، كانوا يتقيّأون ويتغوّطون في آن، وتخرج منهم سوائل لزجة صفراء اللون أو قريبة إلى الاخضرار، وحين تحوّل ما يفرغونه إلى سائل أبيض وارتفعت حرارة أكثرهم، قيل إنّها الكوليرا، وربّما التيفوس، وهم على وشك الموت، الذي سيحصد ما بقي منهم على قيد الحياة.

بدأت أسراب طيور «البيريجك» تقترب من سماء الأناضول، وكانت تطير عكس اتجاه قوافل الأرمن، متجهة كعادتها في ربيع كلّ عام نحو مناطق «البيريجك»، حيث ستضع بيوضها مكابدة عناء السفر والطيران لأيام أو أسابيع، منطلقة من حوض النيل، عابرة الأراضي الفلسطينية، صعوداً إلى الشمال، لتحطّ فوق ذلك النتوء، وتعلن أنّها هناك ستكون، وهناك أرضها وسماؤها. ألقت آرشا نظرة سريعة، أشعرتها بدوار، أطرقت وفي عينيها تلك الصورة، وربّما تمنّت أن تكون طيراً من تلك الطيور، لا رقيب حولها، لا دركي، لا بك. ألقت نظرة على طفليها، كانت ضعيفة واهنة، وكانا هزيلين، مدّت كفّها تلامس وجه ابنتها، فرأت عظام أصابعها، لم تتأسّف،ولم تخف، أمّا طفلاها فكانا مُتلاشيين كئيبين وقد غارت أعينهما في محاجرها، لكنّهما ما زالا حيّين.

جرّت قدميها الواهنتين، أمسك ابنها بطرف ثوبها، سألها عن نقطة ماء، أحسّت بكفّها تهمّ بصفعه على وجهه، الذي كان كجمجمة يكسوها جلد داكن متشقّق، من أين ستأتي بقطرة ماء؟ قيل إنّهم يقتربون من أرض مأهولة، وربّما يجدون بئراً أو أكثر، لم تستطع التفكير أو الحزن أو التأسّي، كانت كغصن ذابل ينتظر لحظة ارتواء، ويبدو أنّ ساعة الوصول لن تُجدي نفعاً، فهي في

الطريق إلى اليباس، كما تبدو الجموع من حولها مجدبة لا ملامح للحياة فيها. أمّا نوبار الذي قاوم الذل والموت، فما زال يتنقّل بين أفراد القافلة، يحثّهم على التماسك، ويذرف إثر كل كلمة دمعة، وكم صدّته النظرات البائسة والهياكل التي تتحرّك كالأشباح، فلم ييأس ولم يضجر. كان نوبار الهرم الوحيد الذي بقي مع الركب، ربّما بسبب بنيته القوية، أو لاحتفاظه منذ أيام الشباب بهواية الركض في الهواء الطلق، أو لما كان يمارسه من تسلّق الجبال، أو الهبوط متدرّجاً بين الأشجار، مستنشقاً الهواء بعذوبة، وكم كان يحلو له في أوقات الفراغ التنزّه قرب بحيرة وان، والسباحة في مياهها، أو الغوص متحدّياً الوقت، ليخرج وسط دهشة المشاهدين وإعجابهم.

ألقى أحد رجال الدرك نظرة شاملة على بقايا القافلة، فبدا منتشياً، لم ترهبه هياكل البشر، ولم يشمئز من الروائح، ولم يخف من الموت المقبل. قال بصوت لا يخلو من السخرية إنّهم يقتربون من بئر عذبة المياه، فارتفعت نحوه النظرات المنكسرة. كان نوبار أثناء ذلك يخطو واهناً، متنقلاً بصعوبة، وكأنّه يتحسّب لأمر وشيك الوقوع. كرّر نقل هواجسه التي لم تغادر رأسه في الأيام الأخيرة، فعلى الصبايا جزّ شعورهنّ وتمريغ وجوههنّ بالتراب، فقد تتعرّض القافلة لهجوم قطاع طرق غير مرّة، وعليهنّ جلب النفور إلى أولئك المجرمين. كانت آرشا تنظر إليه بلا مبالاة، وكأنّها تهزأ

من توقّعاته التي أتت متأخّرة. تلك النظرة التي رمته بها أكثر النساء، إذ لم يبقَ من مكان للخوف في النفوس، فليس هنالك من توقّعات أسوأ مما كان، أو مما هنّ فيه.

لماذا لم يكذب الرجل الدركي؟ وهل صدق لأسباب في نفسه؟ نوبار فقط يعرف أنّ ما سيشاهده سيبقى في ذاكرته كصورة أرادها للتسلية ولقتل الوقت، فما إن لاحت فوّهة البئر، حتّى دبّت الحياة في الأجساد الميتة، وتدافعت بقوّة مذهلة. كانت آرشا تهرع كما يهرع غيرها، وتندفع كما كانت تفعل وهي تتسلّق أشجار التوت لتطعم يرقات الحرير، غير أنّ الصبايا سبقنها، وبقيت صورهنّ في ذاكرتها، فلم تكن لتفرّق بين العطاش منهن، أو من أردن الموت، كن يتقافزن نحو فوّهة البئر، ويتسابقن على رمي أجسادهنّ في الماء، واحدة تلو الأخرى، بين ضحكات رجال الدرك وقهقهاتهم، وتأسّي نوبار الذي بقي صامتاً منتظراً إرواء عطشه.

لم تستطع آرشا معرفة من بقيت في عُمق البئر، غير أنّ من خرجن منه كنّ يقطرن ماء، فهرع إليهنّ كثيرون، يلعقون أذيال الثياب المبلّلة، أو يمتصون قطرات المياه المتسرّبة من الخيوط الذابلة، وكأنّ تفاصيل اللوحة قد اكتملت في عيون رجال الدرك، فأوعزوا بالتحرّك من جديد. فقد اقتربوا من نقطة الوصول.

يعرف نوبار تماماً أنّ الوصول أصبح معجزة، وأنّ خطّة الإجهاز على أكبر عدد منهم ما زالت قيد التحقيق،

وأنّ حلم الأرمن بات من الماضي البعيد، أمّا التخطيط لإبادتهم فتفاصيله فوق هذه الأرض وتحت هذه السماء.

تتالت الأحداث بسرعة، ففي تلك الأجواء المرعبة ظهرت جماعة من قُطّاع الطرق، كان عددهم يقارب الثلاثين رجلاً، يرافقهم عدد من الكلاب، وعلى وجوههم أمارات الجوع، تسبقهم نظرات الاستكشاف. تجاهلهم الدرك ، أو إنهم أتاحوا لهم الفرص الثمينة، فكانوا يبحثون عن غنائم، يفتّشون الجيوب، أو بين الأفخاذ، ويهدّدون ببقر البطون، وراح بعضهم يتنقل بين النساء، ويختار من تعجبه، ذلك يوم لن تنساه آرشا، فقد وقع اختيار أحدهم عليها، فركعت وهي تحضن طفليها متوسّلة، لكنّه شدّها من شعرها، وجرّها إلى خارج القافلة. هل دنت ساعة موتها؟ لقد سيقت نساء قبلها كما سيقت هي، إلى مكان لا يبعد كثيراً، وتحت بصر رجال الدرك. لم تكن آرشا تعرف مصيرها، أو إلى أيّ حتف تسير، لكنّها عادت منكّسة الرأس كغيرها، تلملم أذيال الذلّ والقهر، لن تنسى ما حصل، وبقيت صور الصبايا وهنّ يلملمنّ أنفسهنّ في ذاكرتها صرخةَ وجع لا تهدأ.

سألتني أمّي عن أسباب حزني، ونصحتني بترك القراءة التي أنهكت نفسي وجسدي. لم أرفع رأسي عن تلك الصفحات التي بين يديّ، صور مرعبة وآراء محزنة، كنت مروّعة من هول ما أرى، صورة التقطها رجل ألماني، صورة التقطها رجل سويسري. وقد وصف رجل نمساوي أحد المخيمات الصغيرة التي هوجم أفرادها ليلاً من قِبل قُطّاع الطرق، فقال إنّه وجدهم في الصباح أجساداً مشرّطة وجماجم مكسّرة، إثر ضربات السيوف أو السحق بالنعال.

أولئك الأجانب، على قلّتهم، استطاعوا نقل صوَر حيّة لمآسي أناس عزّل. سطّر أحدهم في مذكراته ما لا يستطيع وصفه أو نسيانه، فقد شاهد آلاف الأرمن البائسين وشبه الأموات، في إحدى القوافل المرتمية على الطرقات، بعضهم ينظر إليه باستجداء، وبعض آخر بلا مبالاة، بينما تراكض الأطفال يرتمون تحت قدميه ويصيحون إنّهم جياع.

- لا تنظري إلى الوراء يا ابنتي.

وجدت في كلمات أمّي ما يشبه كلمات أبي، غير أنّ أمّي أكثر جِدّية، فهل ستبقى أمّي بكامل هيبتها، أمام ما يقارب آلاف النساء من الأرمن بين مدينتي مالطة وأورفة؟ وكيف ستتقبّل الفكرة، وهي التي تنتمي إلى أورفة عن طريق أمّها، جدّتي؟

هل كان كل ذلك خُططاً مدبّرة؟ هل من المصادفة أن يموت الأرمن بكلّ الأساليب والطرق، وفي توقيت واحد وعلى نحو منظّم؟ ما الذي قصدته حكومة خربوت من تسليمها خمسين ألف أرمني من أرضروم وطرابزون وسيواس واسطنبول إلى أحد البكوات، ليجمع بغال عشيرته وينقل عليها النساء، بُغية إيصالهنّ إلى أورفة، لكنّهنّ لم يصلن، فقد نُهبت دراهمهنّ وأمتعتهنّ وحليهنّ وقُتِلنَ في الطريق؟ فهل يتجاسر بك من البكوات مهما عظم شأنه أن يفعل كلّ ذلك، إن لم تعده دولته بالأمان؟

- قلت لك لا تنظري إلى الوراء يا ابنتي.

كانت هنالك جدّتي، تركتها في الماضي الحزين، وجدّتي تناديني إليها. جدّتي ليست في الماضي، جدّتي هي في الآن. جدّتي كغيرها من رفاق القهر الطويل، أكثرهم لم يعد يرغب في شيء، لم يعد يريد شيئاً، لقد تساوى عندهم كلّ شيء، ماتت آمالهم، وتوقّفت مطالبهم في راحة أخيرة وأبدية.

كان من السهل رؤية العربة التي وصلت توّاً، فحدود القافلة باتت أقرب إلى العين، بعد أن وفّر عليهم تناقص أعدادهم بُعد المسافات. كانوا لا يعرفون كيف ومتى أصبحوا بالمئات؟ ما يعرفونه أنّهم على قيد الحياة، وأنّ من غاب منهم فقد مرّ في حياتهم كطيف لن يعود، ومَن بقي فلأنّه احتفظ بثمن رغيف خبز وقطرة ماء. قال نوبار إنّ ذاكرته تتّسع لآلاف الوجوه، وملايين الأسماء. ربّما كذب نوبار، ربّما.

منذ زمن طويل لم تبتسم آرشا، لكنّها تبتسم بحُرقة الآن. ما كان يهمّها قدوم عربة كيفما كانت مواصفاتها، ولا يهمّها إن جرّها حصانان، ولا إن كان أحدهما أبيض اللون ولون الآخر داكناً، فهي كبقيّة رفاق ألمها، تسير إلى غير هدى، ومن يأتي قدره لا تعيره اهتماماً، نسيت أحزانها وأوجاعها، وباتت بين قطيع من الخراف، يساق إلى مصير محتوم.

هرع الدركي إلى الرجل صاغراً، وتناول من يده الكتاب، بعد أن حيّاه باحترام. فالكتاب موقّع من أحد البكوات الكبار، ويبدو أنّه ذو شأن.

رجل العربة أرمني كبقيّة أفراد القافلة، لكنّ أهمّيته لا تقارَن بأهمّية الآخرين. لِمَ وكيف؟ ذاك ما لن تعرفه آرشا. وكما قال نوبار، كان هذا الرجل الثري من قضاء كاختة التابعة لولاية خربوت، وهو من أعيان الأرمن، يدعى «الآغا»، أمّا زوجته فوصفته بأحسن الصفات، فقد أحسن إلى الأرمن والأكراد، ويوم أُجبر على الهجرة، مزّق دفاتر الديون والسندات المستحقّة، وقال إنّه سامح الجميع.

عرفت آرشا أنّ للرجل أُسرة مكوّنة من زوجة وابنين وطفلة رضيع، وأنّ في صحبتهم أخا الزوجة، وهم من أسرة ثرية ومحظوظة وذات نفوذ.

ها هي ذي آرشا التي كانت قبل أشهر جميلة الشكل، نظيفة الجسد والهندام، ها هي ذي توقن أنّ البشر لا يتساوون في أمور الحياة، ما دام التقييم خاضعاً

لأمزجة أناس لا يعرفون قيمة الإنسان، وتكتشف يوماً إثر يوم وساعة بعد ساعة، أن الأرمن ارتكبوا ذنباً لا يُغتفر، يوم ولِدوا مخالفين لحكومة بلادهم في العقيدة والأفكار.

ما زال الآغا مشغولاً مع رجال الدرك، بينما اغتنم الفرصة بعض أفراد القافلة، فاستلقى منهم من استلقى على الأرض الحارّة، ومنهم من جلس القرفصاء، فبدت عظامهم النافرة كحطب جاف قابل للكسر.

لم يعد بحوزة أحد منهم شيء من المال، استنفدت جيوبهم عِصِيُ الدرك التركي، والجميع باتوا عطاشاً وجياعاً، الجميع في ذل وخنوع واستسلام للآتي. هالَ آرشا أن ترى في عيني طفليها شبه دموع متحجّرة، تلك الخطوط الداكنة حول الفم والعينين. مدّت كفّها، ارتطمت برَضْفة واهان، التي كانت نافرة فوق ساق ضعيفة، التصق بها جلد داكن. كانت الأرض ساخنة والشمس حارة، ولم يعد لأحد منهم قوّة أو مقاومة. وهذا الدركي الذي انعدمت لديه الرحمة، يتعقّبهم بباروده ذات النصل الحادّ. اللعنة عليك.

قال نوبار:

- لا ذنب لهذا الدركي، فهو عبد مأمور.

فقدت آرشا المقدرة على التأسّف أو النقمة، فالجميع في لحظةِ أمواتٌ. ذنب هؤلاء الدرك أنّهم ولِدوا في زمن هو زمن ولادة الأرمن، وذنب الأرمن أنّهم ولدوا في زمن ولادة هؤلاء الدرك، فمن هو المسؤول؟

- نحن في خير يا آرشا، في مدينة طرابزون، جنوب البحر الأسود، وضِع الأرمن في زورق، ولحق بهم رجال الدرك، فقتلوهم ورموهم في البحر.

لم تعد ريتا تشابه ريتا، لم يعد واهان يشابه واهان، تناثرت فوق وجهيهما بثور سوداء، وربّما بقايا ذباب حطّ ورحل. همست ريتا وهي تفرك جفنيها بكفّ ضئيلة:

- أين هو الله يا أمّي؟ قالت جدّتي إنّه في كلّ مكان. هل الدركي هو الله يا أمّي؟

كانت أم آرشا تقول إنّ الله يجرّب خائفيه، وريتا تخاف من الدركي، لكنّ الدركي لا يجرّبهم، الدركي يتشفّى منهم وينتظر موتهم، لأنّهم في نظره يستحقّون العقاب.

قال نوبار متأسّفاً:

- لقد دُسّت بعض الأفكار في الدين، ولاقت قبولاً عند الجهلة، هؤلاء الدرك يعتقدون بأنّهم يخدمون الخالق، ولسوف ينالون الثواب في الآخرة.

تلازم توقّف القافلة مع قدوم الآغا وأسرته، فهل حقّاً - كما قال الدركي- قد اقتربت ساعة الوصول؟ نوبار ينفي ذلك. ربّما كانت هذه محطة جديدة وخطة أخرى. لكنّ وجه الآغا يُنبئ بغير ذلك، فهو مطمئنّ للمجريات، وقد أفرغ حمولة العربة، ونصب خيمة صغيرة، وأنزل صندوقاً ثقيل الوزن، وبدا مبتهجاً، على خلاف الزوجة التي طغت على وجهها أمارات الحيرة والخوف.

اختفى الآغا مع أخي الزوجة، قيل إنّهما ذهبا في رحلة استكشاف سريعة، بحثاً عن المكان المناسب للاستقرار، وذكرت أسماء أماكن عدّة، كركوك أو الموصل أو حلب.

تذكّرت آرشا زوجها نازار، سامحه الله، انحصر همّه بتوسيع العمل، وصبّ اهتمامه على تربية دود القزّ وصناعة خيوط الحرير، ولم يهتمّ بجمع المال بقدر انشغاله بتأمين الموادّ اللازمة والأمكنة الضرورية لرفع مستوى الإنتاج. لو كانوا أثرياء لاختلف عليهم كلّ شيء، لكان يبحث لهم عن الأمان، أمّا هي فستنتظر عودته إليها بسكينة واطمئنان.

وصلت قافلة ديار بكر، هياكل واهنة تخطو بصعوبة. كانت آرشا تحني رأسها باستسلام، وكانت صورة أمّها في آخر لقاء تتراقص أمام عينيها.

كيف سترى أمَها؟ وكيف ستراها أمَها؟ هما معاً في يوم الدينونة، تتساويان في العقاب، كما يتساوى معهما كلّ هؤلاء. التركي هو الديّان، وهم الكفرة في يوم الحساب.

اكتشفت آرشا أنّ الحساب عند التركي على درجات، أو أنّ الدرجة تعود إلى مدى ثقته بالثواب، فكيف وصلت قافلة ديار بكر على هذه الصورة، رؤوس متراصّة وهياكل واهنة، وأجساد محنيَة وعُراة، رجال أذلاّء، ونساء منهكات، قيل إنّ البك الذي يقود القافلة شديد الإيمان، كان يوقف القافلة، ويدعو قطّاع الطرق لتنفيذ رغباتهم في هذا الحشد.

بك عن بك يختلف، بك يسرق وبك ينتهك الأعراض، وكلّ البكوات ينتهكون الأموال والأعراض. امتدّ بصر آرشا للإحاطة بالأجساد القادمة، كانت كلّ القوافل متشابهة، صورة مكرّرة عمّا حولها، فلم تجد سوى الأفواه الفارغة والعيون المائتة.

لم تزَ آرشا أمَها، ولم تزَ أصدقاء طفولتها. ديار بكر في ذاكرتها أنشودة حبّ وقصيدة شعر، ملعب وبستان ليمون وعنب، فهل قُتلت أمَها في الطريق، كما قُتل غيرها؟ هل قُطّعت أوصالها قبل أن تُرمى في النهر؟ هل دافعت عن الصبايا وهنّ يُفترَسن فنُكّل بها؟ هل عوقبت وتُركت على قارعة الطريق لتأكلها العِقبان؟ هل عطشت فرمت نفسها في مياه النهر؟ هل وهل وهل؟

قُل يا نوبار؟ كيف ماتت أمّي؟

لم يجب نوبار، فربّما قُتلت بأبشع الطرق؟ فبين ديار بكر وماردين ربِط النساء والأطفال، وأُلقي بهم من مكان عال، ليصلوا إلى الأرض إرباً إرباً، وعلى مقربة قُتل كثير من الأرمن بيد قصّاب قيل إنّه لا يعرف الرحمة، أمّا ذلك البك المؤمن فقد رمى عدداً من النساء والرجال في غير بئر، وأغلق عليهم ليموتوا وجعاً واختناقاً.

- قُل يا نوبار، هل أغرقوا أمّي في دجلة أم في الفرات؟

يبعد نهر دجلة عن ديار بكر مسافة نصف ساعة تقريباً. كرّرت آرشا السؤال، وأصرّ نوبار على الصمت، ربّما تذكّر ابنيه اللذين غادراه إلى جهة ما، اغرورقت عيناه بالدموع وابتعد يجرّ قدميه. كان متأكّداً أنّ للقتل مختصّين، كلّ بلد ينهج طريقة أو أسلوباً، كما حدث في مدينة بتليس، حيث جُمع الأرمن في المتابن، وأُشعلت النار بهم.

كلّ الأمور متشابهة، الموت والخوف، الجوع والعطش، كلّ شيء إلى فراغ، لم يعد من خوف أو حزن أو وجع، وبقي السؤال، ما الذي فعلوه ليستحقّوا كلّ هذا العقاب؟

لكنّ آرشا التي لم تجد أمّها، قالت باستسلام: ربّما كان أرمن ديار بكر أشدّ كفراً من أرمن وان، وربّما كان بك قافلة وان أقلّ إيماناً من بك قافلة ديار بكر، وهذه معادلة مفهومُها عند البكوات ومخطّطاتهم. معادلة أثبتتها قافلة ديار بكر، الذين أتوا والذين لم يأتوا، قيل

إنّ أعدادهم تناقصت مع مرور الدقائق، وإنّهم ذاقوا من وسائل التعذيب أبشعها. حضنت آرشا جسديَ توأمها وكأنّها تستسلم للقدر.

21

غاب الآغا، وغابت معه الطمأنينة، فقد دبّ المرض في طفليه دفعة واحدة، أفرغا ما في جوفيهما، وبقيا يتغوّطان إلى أن تحوّل برازهما إلى سائل أبيض. أثناء ذلك مات أكثر من طفل وأكثر من امرأة. ارتاعت، ولم تدرِ ماذا تفعل في محنتها تلك.

ولم يكن أحد يفكّر في تقديم المساعدة إلى أحد، فالجميع في محنة، وليس بينهم إلاّ مِن فقد أحداً من مرافقيه أو أسرته، وها هي الأوبئة تحيط بهم، وقد تقضي على الباقين.

كان واهان يطالب أمّه بالطعام، ربّما لتلك الرائحة التي هبت من خيمة الآغا، وتشبه رائحة اللحم المعلّب، وحين يئس همس بوهن إنّه عطشان. شعرت آرشا بأنّ الله يمنّ عليها وعلى توأمها بالصحّة، فلم تعد ترى في تلك الأسرة ما هي فيه من ثراء، وصلّت بهمس - ولأوّل مرّة - أن يبعد الله عنها كلّ مكروه. فتحت صُرّة الخبز وناولت كلاً من ابنها وابنتها قطعة، أخذاها بلهفة، لكنّ واهان أصرّ على وجبة غنية باللحم. ضحكت آرشا ثمّ بكت، فهذا آخر ما تستطيع شراءه بعد الآن، فالليرات نفدت، أو قد تضطر إلى بيع الإسوارة الذهبية.

ظهرت خلال ساعات حالات متفرّقة من المرض، غير أنّ الرعب لم يدبّ بين أفراد القافلة، فالحالة التي هم

فيها تشبه يوم الدينونة، وهم يستسلمون للمشيئة دون تذمّر.

قال نوبار: عدنا إلى العصر الحجري، يوم البحث عن جُحر ومأوى، يوم عاش الناس حياة الغابة والحيوان، لا يعرفون لماذا ولِدوا، وكيف يرحلون، ويرتمون في أي مكان، كما هم الآن، ولأنّهم يجهلون الآتي يستطيع كلّ منهم أن يغفو في اللحظة المتاحة، وقد لا يستفيق، بعد أن وهن جسده وجفّ حلقه، واسودّ لسانه.

وحدها زوجة الآغا لم تعش المحن التي عاشوها، كانت تُشبه تلك النسوة كما كنّ في بداية الرحلة، وتحوّل الرعب الذي أصابها إلى نوبات هستيرية تشبه الجنون. لم تكن تدري ما تفعله، وأصبح طفلاها كالخِرقة البالية، تفرغ الروح والحياة.

مات طفلها الأول في اليوم الثالث لغياب الأب. وتطوّع نوبار لمساعدتها، ونصحها بدفنه عند جذع شجرة، وكان لديها من القوة ما أمكنها من أن تندبه طوال الليل، حتّى أصبح صوتها كنباح كلب، ثمّ تغادره لتبحث عنه، وتروح تصرخ أو تشتم، وتشدّ شعرها أو تضرب جسدها، الذي ما زال بضّاً، وتعود ثانية إلى جذع تلك الشجرة.

غابت الشمس وأشرقت ثانية، ولم يعد الآغا. مات أكثر من امرأة وطفل، ولم يصدر خلال ذلك أمر التحرّك، فالقطار لم يأت. أمّا نوبار فأكّد ثانية أنّ الوقود نفدت بسبب الحرب، وقد يتابعون السير على الأقدام.

مات الابن الثاني للرجل الثري، بعد أن أفرغ سوائل جسمه، وجفّ جلده المتشقّق، أمّا الأمّ التي تحوّلت إلى امرأة معتوهة، فنسيت زوجها الذي ما زال غائباً، ونسيت نفسها، ولم يبقَ في ذاكرتها سوى طفلتها الرضيعة، فكانت تمشي بها بين الجموع، مصرّة على إطلاق أصوات من حنجرتها، كما يفعل حيوان جريح، وهو يلهث من الألم، بينما الطفلة تمتص من ثديها حليباً يكاد يجف.

أصبحت زوجة الآغا صورة تشبه صورة كلّ فرد في القافلة، وإن اختلفت عنهم في مقدرتها على التحرّك، وعلى الصراخ أو الندب، فما زال جسدها قويّاً، بخلاف حالتها النفسية. كانت تمرّ قرب الهياكل المنهكة والعاجزة عن التفكير، أو المرتمية بعشوائية، أو التي تنتظر لحظة الراحة، فلا تشعر بشيء عدا انسجامها بما هي فيه، بطريقة لا تستطيع الفكاك منها.

اكتشف نوبار مقدرة الدرك على إحصاء عدد الأجساد، التي ستتخلّف عن الركب، وكان على يقين من أنّهم ينتظرون موت كلّ فرد منهم، ويتشفّون ممّن ستنهشه الكلاب الضارية، أو ممّن سيسلبه ُقطّاع الطرق ثيابه أو ما في جيوبه قبل أن ينكّلوا به، رجلاً كان أو طفلاً أو امرأة.

أتى النداء بالتحرّك. نهض من استطاع النهوض، ومن أصابه الوهن استعمل يديه ليدبّ كحيوان أليف، أما من استعصت عليه المتابعة فبقي في مكانه. نهرَ الدركيُّ إحدى النساء، فأجابت بذلّ إنّها لن تقوى على المتابعة، ورجته كما فعلت تلك المرأة في بداية التهجير، أن يقتلها قبل أن تأكلها الوحوش الضارية، فرفع بندقيته ورماها بطلقة أسكتتها إلى الأبد.

انضمّت زوجة الآغا إلى أعضاء القافلة. لم تنتظر عودة زوجها الذي غاب طويلاً، ولم تتساءل عن أسباب غيابه. غادرت خيمتها دون أسف، وربطت طفلتها إلى خصرها، فبدت وكأنّها تسير على غير هدى، أو أنّها أقوى من الجميع على السير والحركة، ولم تتحدّث إلى أحد، أو تتقرّب من أحد، أمّا نظراتها المختلسة إلى آرشا فلم تكن تعني لهذه شيئاً، ولم تحاول تفسيرها، ولم يَدر في ذهنها أنّ الرسالة ستصل إليها قريباً، كانت عاجزة عن التفكير، وتصوّر أسباب نظرة ما، مهما كانت تحمل هذه النظرة من إشارات. كانت تقسم آخر ما عندها من مؤونة، وعليها ابتياع رغيف خبز وزجاجة ماء، فقد تيبّست شفاه طفليها، وجفّ حلقاهما، لكنّها لا تملك الثمن. تذكّرت كيف يموت الناس، وأيقنت بسهولة ذلك، فهل مات زوجها أيضاً؟ هل مات أخوها؟ أمّها وأبوها؟ تذكّرت جارتها أظنيف، هل ماتت هي أيضاً؟ استغربت

كيف أنّها تستطيع التذكّر، وأنّ حالة النسيان تراجعت، فقد نسيت ماضيها يوم انتقلت إلى العالم الآخر، عالمها الذي تعيش فيه الآن، وعليها التأقلم في أجوائه والانصياع إلى قوانينه، وردع أسباب الجوع والعطش، والابتعاد قدر المستطاع عن التمرّد، لأنّ الموت أقرب طريق إلى الراحة، راحتها من جهة، وراحة رجال الدرك والبكوات من جهة أخرى.

لم تستطع تقدير الوقت المتبقّي للوصول، أو كم رغيفاً ستحتاج وكم زجاجة ماء. لم يبق لديها من المال ما يمكّنها من شراء ما يبقيها وتوأمها أحياء، وعليها الحفاظ على الإسوارة، فقد تدخل جيب الدركي، الذي سيمنحها ضالّتها لمرّة واحدة.

أشرفت الشمس على المغيب، أمّا المسافة التي قطعوها فتعدّ بعشرات الأمتار فقط. لم تنفع تهديدات الدركي في شدّ العزائم، أو الإسراع، وكان صوته يتردّد بين الفينة والأخرى مهدّداً، أو صوت سوطه لاسعاً. فكّرت آرشا: ربّما تخلّف بعض أفراد القافلة، وربّما مات أو قُتل آخرون.

أتت أوامر بالتوقّف. هبط الدرك من عرباتهم، وانشغلوا بعربة توقّفت توّاً، هبط منها رجال طوال القامة، بشعر أشقر وعيون ملوّنة، وكلّ منهم يحمل آلة تصوير. بدوا متأسّفين ومستنكرين لما يرونه. كانت وجوههم نضِرة وعيونهم برّاقة، وكانوا يلتقطون عشرات الصور. كان الأطفال يهرعون إليهم شاكين

الجوع والعطش، بينما النساء يتوسلن التشفّع لدى المسؤولين لإنقاذ حياة مَن تبقّى منهم.

قال نوبار:

- اللعنة على ألمانيا دولة هؤلاء الرجال، هي حليفة الأتراك، وساعدت على تهجيرنا، لو أرادت لما حدث لنا ما حدث.

أصبح نوبار أصغر حجماً، فبدا ببنطاله الواسع أقرب إلى متنكّر في ثياب رجل آخر، طال أنفه وابيضّ حاجباه، وكانت كتفاه متهدلتين، وساقاه مقوّستين.

- هل بقي الكثير يا نوبار؟

- يعود ذلك لما خُطط لنا.

- هل هنالك أفظع ممّا نحن فيه؟

لا تعلم آرشا ماذا حدث لكثير من أرمن تركيا، ولا تعرف ماذا حلّ ببعض الصفات التي باتت تطلق على بعض المدن والقرى، مثل خربوت التي أصبحت مقبرة الأرمن. نودي ذلك الصباح على بعض الرجال للمثول أمام المبنى الحكومي فيها، ثمّ نودي بعد أيام على بقيّة الرجال، سُجِنوا يومها ثمّ رُحِّلوا دون رجعة. ما لا تعرفه آرشا هو أنهم عُذّبوا بوحشية، نُتِفت حواجبهم، واقتُلعت أظفارهم، وبُتِرت أرجل بعضهم، أو دقّت المسامير في أسفلها، وقيل إنّ بعض النساء قُطعت أثداؤهنّ.

ما لا تعرفه آرشا هو أنّ كلّ ذلك حدث على قرع الطبول، كي لا تصل أصوات أوجاعهم إلى الجوار.

فليحدث ما يحدث، فكّرت آرشا، ما دام الموت هو نهاية الوجع. لكنّها لا تريد الموت الآن، مهمّتها لم تنته بعد وعليها واجب المتابعة.

تذكّرت للحال زوجة الآغا، ما زالت قوية، وما زالت طفلتها تتعلّق بثديها، بينما تحتفظ هي بتلك النظرة، كما فعلت وهي تلاحق مركبة زوجها الذي راح يبتعد ولم يعد.

سرى خبرٌ ذلك المساء، فالقافلة تقترب من بلاد الرافدين، معنى هذا أنّهم يقتربون من برّ الأمان، وأنّ الله منّ عليهم أخيراً بالخلاص.

دخل أبي وعلى وجهه ابتسامة، قال:

- هل تعلمين يا لورا. سأشارك في معرض للتصوير.

- وهل تعلم يا أبي، إنّ الصور التي التقطها بعض الأجانب لقوافل المهجّرين تبعث على الجنون.

- أعلم طبعاً، إحدى تلك الصور التقطها رجل سويسري كان يعبر سهلاً يدعى باكتشي، وكانت لأطفال جياع، ونساء مقهورات، ورجال مهزومين، جميعهم دون ملجأ ومعرّضون لسطو قُطّاع الطرق، أمّا الصورة الثانية..

- ما بكَ يا أبي؟

- ما بكِ يا لورا؟ أنا أقول الحقيقة، امرأة هاربة وهي تخفي عورتها، وأخرى عارية، تحت أقدام الدرك، ودركي يرفع بيده حربة، وآخر يحمل منجلاً، ليهوي به على رأس كيفورك.

- من هو كيفورك؟ أتعرفه؟

- كيفورك هو زافين وزهراب وكره بيت و...

مضى على تلك الأحداث ما يقارب الخمسين عاماً. كان أبي في العاشرة من عمره تقريباً، ولا بدّ أنّه يذكر تفاصيل تهجيرهم، وما عاناه من جوع وقهر ووجع، وما شاهده من موت وقتل. لكنّ أبي تناسى كلّ هذا، ولا أذكر أنّه أشعرنا بأحزانه تلك أو آلامه، ولم أسمع منه ما له علاقة بقصّة التهجير أو حملات الإبادة، مع أنّني عرفت الكثير عمّا حدث تلك الفترة، من خلال روايات

جدّتي، أو من خلال قراءاتي ضمن اختصاصي في التاريخ. أنا موقنة أنّ أبي لم ينسَ تلك الأيام، خصوصاً حين يعود إلى ذكرياته في مدينة وان، ويسترسل في وصف طفولته، فيتذكّر أخته ريتا، وبستان التوت، وديدان القزّ، ويصبح جادّاً، على عكس ما يكون حين ترد ذكريات التهجير، فتنقلب الأمور إلى مزاح، ولا نستطيع التمييز بين ما هو حقيقي وما أراد أن يصل إلينا من تلك الحقائق، أم يتصنّع اللامبالاة لئلاّ يتحدّث عن تلك القوافل، حيث بات الناس أشبه بالقطط الشاردة، لا روابط تجمعهم، ولا علاقات بشرية، متجاهلين الموت، الذي يحصدهم واحداً تلو الآخر، مستسلمين للآتي الذي سيختار المصير، لتصبح قضيّتهم الأولى ما يسدّون به رمقهم لائبين على قطرة ماء، وقد وهنت أجسادهم، وتيبّست نظراتهم، وتجمّدت معاناتهم. أم يتجاهل أبي كلّ ذلك لأنّ كلّ الأسئلة ستصبح دون جواب؟

فيمَ فكّرت آرشا وهي تقدّم ابنتها ريتا إلى إحدى السيدات العربيات؟ لم تفكّر طويلاً يومذاك، لم تتساءل أو تنتظر قراراً، حدث هذا يوم مرّت بهم إحدى عربات الخيل، وأطلّت منها وجوه يغمرها الأسى والخوف، فتوقّفت وهبط منها ذلك الرجل وخلفه امرأة بهت لونها واصطكّت قدماها، وحين زحف نحوها فوج من الأطفال، ارتعبت، فقد بدوا بهُزالهم ونظراتهم الجامدة أقرب إلى الأشباح، أما لماذا سقطت تلك المرأة على

ركبتيها وهي تنشج بصوت أخرس، فذلك بقي في ذاكرتها هي، وربّما في ذاكرة جدّتي آرشا، التي ذهلت من أنّ هناك أناساً مختلفين، أناساً يستطيعون البكاء أو الندب، على عكس ما هم فيه.

قالت دون تردّد:

- خُذيها، إنّها جائعة، أطعميها.

ركعت المرأة وحضنت ريتا. لم تتفوّه ريتا بكلمة، لم تتعلّق بأذيال أمّها، ولعلّها عرفت أنّ الخلاص قد أتى، فقد رحلت مع المرأة دون لفتة أو كلمة، أمّا ما تبقّى من ذكراها، فهو تلك الليرات التي وضعتها المرأة في كفّ آرشا وغابت.

لم تمت ريتا من المرض أو الجوع، لم تمت بيد قاطع طريق أو بحربة دركي، وها هي آرشا تطمئنّ إلى مصير ابنتها قبل أن يفاجئها هي الموت.

- هل ستموتين يا أمّي؟

لا لن تموت قبل أن تطمئنّ إلى مصيره هو أيضاً.

- أنا لن أتركك.

غصّت آرشا، وهي التي جفّت مُقلتاها، واحتضنت ابنها يائسة. لقد تخلّت عن ريتا في لحظة استخفاف، لكنّه الضعف الذي يطغى على كلّ شيء. وبحركة لا شعورية، وضعت كفّها المعروقة تحت صدرها، لتكتشف كم هي هزيلة، فلم يكن هناك ما تجسّه، وتحت القفص الصدري تكوّر شيء يكاد يلتصق بظهرها. وضعت كفّيها حول خصرها، فالتقتا من الجانبين، وهبطتا فوق

الوركين اللذين تساويا مع عظمي الفخذ. كان ثوبها الفضفاض قد ازداد اتّساعاً، فرفعت أطرافه، وطالعتها قصبتان من عظام، يسترهما جلد اختلف لونه الباهت عن لون ساعديها الداكنين. تلك اللحظة خرجت من حلقها حشرجة تلاها أنين، ومن ثم راحت تندب حالتها، مستعذبة شجونها، وأصبح صوتها كسهام تنطلق إلى لا مكان، وإلى كلّ مكان، وهي تحضن ابنها الذي بات كقشّة تكاد تسقط أو تتطاير في الفراغ.

عصر ذلك اليوم، عاد حصان الآغا دون عربة. كانت زوجة الرجل أثناء ذلك تعبر جيئة وذهاباً، وقد تدلّت طفلتها فوق ثديها الرخو. عرفت الحصان للحال، بلونه الأبيض الناصع، فلم تنبس ببنت شفة، وركعت وقد تدلّى رأسها فوق جسد طفلتها، ليصبحا معاً كتلة دائرية جامدة.

قال نوبار:

- قُتل الآغا.

- كيف؟

- قُتل وكفى.

فجأة، اقتربت زوجة الآغا من آرشا، ورفعت الطفلة عن صدرها وأعطتها إيّاها، ثمّ ابتعدت دون أن تتفوّه بكلمة، وقبل أن تنتبه آرشا إلى ما حدث، كانت المرأة قد اختفت عن الأنظار.

24

قبل أن يأتي المساء، حدثت أمور عدّة، فقد مات الحصان في ظروف مجهولة، واختفت زوجة الآغا، ودبّت القدرة في الأجساد المنهكة، لإقامة وليمة طعام على لحم الحصان الميت.

قال الدركي لآرشا:

- ألا تريدين إطعام الطفلة؟ كم معك من الليرات؟

لأوّل مرّة ترى آرشا دموع نوبار، كان يحمل في إناء صغير ماء وسكّراً، قال هذا للطفلة، وتابع:

- قتلوا ماضينا وحاضرنا، وها هوذا المستقبل يوشك على الرحيل.

لا تستطيع آرشا أن تحزن، ليس لديها المقدرة على ذلك. لقد فقدت جزءاً من تفكيرها ومشاعرها. ريتا الآن في عالم آخر، بين أناس آخرين. ريتا هي الفقدان الثاني، بعد أن فقدت الوطن والحبّ، بعد استيطان الشرّ. نسيت آرشا الماضي ولا تفكّر في الآتي، وتحوّل وجعها إلى قرار يعلنه الدركي، وهي كبقيّة أفراد القافلة يلبّون النداء.

لم تكفّ الطفلة عن البكاء، ولم تكفّ آرشا عن التذمّر، فما الذي تفعله؟ أترميها كما فعلت بريتا؟ من أين تأتي لها بالطعام؟ كيف تتحمّل مشقّة السير ومقاومة الآتي؟ هي المنهكة وفاقدة القوة والاستطاعة؟

ناحت بصوت أخرس، لم يعد في جسدها قطرة ماء، لم يعد فيها ما تنضح به، أصبحت كحطبة متحرّكة وجافّة، هزلت من الجوع، ورقّت مفاصلها من التعب، لكنّها ما زالت تنبض حياة، شيء ما يجعلها تتحرّك وتبحث عن كسرة خبز أو نقطة ماء. تستطيع آرشا أن تتخيّل ملامحها، تلك الملامح التي انعكست في الوجوه حولها، وجوه تحدّت الجوع وقسوة الدرك، وبقي في أعماقها بصيص مجهول المصدر، خفيّ عن المدارك، يحرّك الجميع لأنّه أكثر علماً، وأكثر مقدرة على قراءة المقبل.

لم تعد زوجة الآغا، ربّما هامت على غير هدى، أو اختطفها قُطّاع الطرق، ورجّحت آرشا انتحارها كما حدث لتلك المرأة التي ولدت قبل أيام، ولم تجد ما تُطعم به طفلها بعد أن جفّ حليبها، فرمته في بئر جافّة، ولحقت به. كانت القافلة أثناء ذلك تتابع المسير، وأصوات الأنين تتناءى مع كلّ خطوة تبتعد.

شعرت آرشا بدوار، مادت الأرض تحت قدميها، كانت تخطو منهكة، بينما يغصّ صوت ابنها في حلقه. كان هذا بالنسبة إليها صدى الجبال أو الأنهر أو الصحراء، وعجزت عن التفكير أو التأوّه. راحت تجرّ ساقاً خلف أخرى، وهي تحمل الطفلة بين ذراعيها، وتشعر بجفنيها المتوسعين وفمها المفتوح وشفتيها المتشقّقتين، ولم تكن ترى، ولا تستطيع تفسير ما أراده ابنها قبل أن يغصّ بالكلمات.

- تعبان يا أمّي.

سقط واهان أرضاً، ارتمت قربه، لم تستطع حمله مع الطفلة، طلبت منه النهوض، لكنّه بقي مفترشاً الأرض.

في غمرة ما هي فيه، أتى أحد رجال الدرك، وراح يصطنع البلبلة، فقد سُرقت بعض نقوده، وعليه التفتيش لاستعادتها. هوى بكفّه على صدغها، فهو متأكّد أنّها تخفي كيس ليراته، أنزل الطفلة عن ذراعها، ووضعها أرضاً قرب واهان، ثمّ رفع ثوبها الفضفاض عن جسدها. لم تخجل آرشا من عُريها، فهذه المرأة ليست هي، هذه امرأة قذرة، تهبّ رائحة نتنة منها. ومع إصراره مزّق أعلى الثوب، فبدا كتفاها كقصبتين تعلوهما عُقدتان من العظم البارز، ولم يكن لها ثديان، بل خرقتان متدلّيتان فوق قفص من العظام، ومرصوفة بجانبي الصدر. وكانت كفّا واهان متكوّرتين فوق عينيه، وقد خرج من فيه صوت يشبه عزفاً متواصلاً للحن حزين.

ما زال الدركي مصرّاً، فساقها إلى جانب القافلة، وراح يشبعها لكماً، إلاّ أنّها لم تشعر بالألم، وكانت تنتظر المزيد، فهل سيرميها لقطّاع الطرق؟ هل سينال منها أحد أولئك المجرمين؟ ما زالت آثار تلك الصور تتحرّك أمام عينيها، ولا تبارح ذاكرتها تلك الليلة.

لم تؤلم آرشا لكماتُ الدركي، وحين عادت تجرّ جسدها، لم تشأ مسح بُصاقه عن وجهها وعنقها، ولا أن تمحو من أذنيها شتائمه. عادت تسير على قصبتين،

وكان ابنها ينتظرها إلى جانب الطفلة، ونوبار يعدّ الدقائق بكآبة.

- يجب أن أنتحر يا نوبار. كما فعلت غيري من النساء.

-إنسي هذا، الطفلة لم تكفّ عن البكاء.

فكّت قِماط الطفلة ثمّ الحفاض، وارتطم كفّها بشيء قاس، كانت صرّة صغيرة الحجم، غطّتها ثانية، وكانت على يقين أنّ بها عشرات الليرات.

كاد قلبها يتوقّف عن الخفقان، ما الذي ستفعله الآن؟ أين ستضع ثروتها هذه؟ وهل سيكتشف الدرك إرثها الكبير هذا؟ لماذا تركت ريتا للمجهول؟ لماذا فرّطت فيها؟ فباستطاعتها الآن إطعامها وإطعام واهان والطفلة معاً. باستطاعتها شراء ضمائر الدرك، واستعادة العافية إلى أسرتها الصغيرة. شعرت بالامتنان لزوجة الآغا، ولنوبار الذي يمدّها بين الفينة والأخرى بالثقة، والذي حفظ لها ذكرياتها، ساعةَ زوجها وإسوارتَها الذهبية.

ضحك نوبار، إذ لم يبق من جثّة الحصان سوى العظام، كما يحدث حين تتجمّع حيوانات غابة على جثث البشر، أكلت آرشا وواهان، وقال نوبار بجدية:

- إن كان الحصان قد مات مسموماً فسنموت بأجمعنا.

قبل أن ينشغل رجال الدرك بطريقة جديدة ولافتة، ظهر الحصان الآخر لعربة الآغا، حاملاً على ظهره رجلاً متهدّل الكتفين، ومع اقترابه توضّحت صورته، كان أخا زوجة الآغا، وحين ارتمى أرضاً لم يعرف أحد ما الذي أحاله إلى ما هو عليه، فهل أصابه الجنون، أم أنّ ما يهلوس به محض خيال؟ كان يتحدّث عن عشرات الرجال، يُربطون بحبال ويُجرّون نحو مكان ما، وبطريقة فجائية تهاجمهم عصابة من قُطّاع الطرق، ينهبون ثيابهم وأشياءهم، ثمّ يقطّعون أجسادهم بالهراوات والمناجل، بين أصوات الألم وأوجاع الموت. وفي منطقة رأس العين، وعلى طريق بغداد، عرف أنّ الدرك هم من أخبر قطّاع الطرق، أنّ جيشاً من الأرمن الكافرين قادم إليهم، فانقضوا عليهم، سبوا نساءهم، ومارسوا عليهم طقوس العربدة، أمام أطفالهم ورجالهم المسنّين، وحين شُقّت بطون النساء بحثاً عن الليرات الذهبية التي ابتلعنها، شقّت أصواتُهنّ عِنانَ السماء، بينما ذُبحت العشرات دون رحمة.

حين أتمّ رجال الدرك مهمّة الأمانة التي أوكلوا بها، غادروهم إلى مهمّات أخرى، فمرّت إحدى العصابات من قُطّاع الطرق، وأجهزت على الأطفال والشيوخ، وكان عددهم يقارب المئة والخمسين نفساً، أعمارهم تراوح بين الخامسة عشرة والتسعين، فذبحوهم بأجمعهم.

أصرّ أخو زوجة الآغا على أنّ ما يرويه حقيقة، وليس من نسج خياله، وأنّه استطاع الهرب هو وبعض الرجال، الذين ربّما لقوا حتفهم، كما حدث للآغا.

ما زالت آرشا تعتبر نفسها بخير، فهي لم تمت من الجوع والعطش، ولم يمت أطفالها بأمراض مستعصية على الشفاء. ما زالت بخير لأنّها لم تُربط كحيوان، وتُساق كمجرمة، ويُمثَّل بأعضائها قطعة إثر قطعة. ما زالت بخير لأنّ الموت لم يحصد جميع أفراد قافلتها. ما زالت بخير لأنّ أمّتها لم تندثر، وسيصل الآلاف منها إلى المأوى الأخير.

تدخّل أبي قائلاً:

- لا تصدّقي ما يقال يا لورا، لو قصد الأتراك إبادتنا، لما كان من أرمني هنا.

- غيرك يخالفك الرأي، فالإبقاء على القليل من الأرمن يبرئ الأتراك من الذنب، هذا ما أكّده طلعت باشا وزير الداخلية آنذاك.

- لو كان هذا صحيحاً، فلِمَ شُيِّد لطلعت باشا أكثر من نُصب تذكاري؟ ثمّ إنّ كلّ شيء أصبح من الماضي.

- لكنّها مرحلة تاريخية، يجب أن يُسلّط الضوء عليها.

- الضوء. الضوء. هل نحن في عتمة؟

- أبي! ألا تعرف أن تكون جادّاً؟

- طبعاً أعرف، لكنّك لا تعرفين أنّ الأتراك هُجّروا قبل ذلك من قِبل بلغاريا، هذه أمور لا خلاص منها في العالم.

- لكنّ البلغار لم يُبيدوا الأتراك، فقد حمل هؤلاء ثرواتهم، وغادروا كبشر، حدث ذلك سلمياً، كما حدث مع اليونانيين، حين هجّرهم الأتراك، هم عذّبوهم، لكن لم يفكّروا في إبادتهم كما حدث للأرمن.

- لكنّ الوضع مع الأرمن يختلف.

لم تكن المرّة الأولى التي يظهر أبي فيها لائماً أرمن تركيا، لكنّها أيضاً لم تكن المرّة الأولى التي يسرد معلوماته بطريقة المُزاح، غير أنّ قراءاتي جعلتني ألوم أبي، فقلت جادّة:

- لا أحبّ مُزاحك يا أبي، أنت تشبه كلّ الأرمن، لم تنظروا إلى قضيّتكم نظرة جادّة.

- وهل تنظرين الآن نظرة جادّة؟

تذكّرت جدّتي، قلت:

- طبعاً، قضيّة الأرمن ما زالت ضبابية الصورة، وعلينا توضيحها عبر قراءة جادّة للتاريخ ومعرفة الحقائق.

هزّ أبي كتفيه ونهض ملبّياً نداء أمّي.

عدت إلى جدّتي آرشا. لقد منحها الزاذ، كما منح واهان والصغيرة، دفقاً من الحياة، حتّى إنّها أصبحت مع الرتل الأول، لكنّها كانت على ثقة أنّ أعدادهم في تراجع، فالبصر بات يرى حدود القافلة بوضوح.

ما الذي حدث فجأة؟ ما الذي يردَده رجال الدرك؟ لماذا يحصون أعدادهم ويفرزونهم إلى جماعات؟ ظهر عن بُعد وفي السماء دخان أسود، يرسم خطاً مرافقاً لصوت متقطّع، يُخبر عن جديد قادم لا محالة.

لكن لا شيء يدفعهم إلى التساؤل، لا فكرة متفائلة، لا انتظار جديد. إنّهم يستقبلون الآتي بذهول، وكلُّ آتٍ سيعبر، كما الليل والنهار، كما تشرق الشمس وتغرب، كما تذرو الريحُ الرملَ الحارق، كما يموت طفل وتهلك نساء، كما يختفي آباء أو ييتَم أبناء.

الصوت يقترب، والخط الباهت يتوضّح، مخلّفاً وراءه صورة أفعى، تتلوّى هزيلة ضعيفة، كانت الجموع تتجه إليها بأبصارها اليائسة دون تفكير، لم يعد لدى أحد من قوة للاستعلام أو التوقّع، أهو القطار؟ أهو المنقذ الذي طال الجري من أجله؟ هل أثمر الانتظار الذي سيحملهم إلى الموطن الجديد؟ إلى الاستقرار؟

خلع نوبار سترته ونصح آرشا بارتدائها، ففي جيبها الداخلي ذكرياتها وما بقي من ليرات. كان هدير القطار قد توقّف، وتصاعد الدخان ببطء نحو الأعلى، ليخفّ شيئاً فشيئاً، أمّا الدرك فكانوا يدفعون الأجساد بأعقاب بنادقهم، تلك الأجساد التي ستنتقل، مثل لمح البصر، إلى داخل العربات.

كانت عربات القطار تضمّ أناساً من مختلف الأعمار، اكتشفت آرشا أنّهم أشدّ هُزالاً وبؤساً، وكأنّ الموت تجاهلهم في الساعات الأخيرة لسبب أو لآخر. بدا هؤلاء وكأن لا ذاكرة لهم، وكأنّهم نسيوا من هم، لا نظرة تجمعهم أو كلمة عابرة، لا سؤال يعبّر أو حركة تصدر، كانوا أشبه بقطيع يساق إلى مكان ما في هذا العالم الفسيح.

اكتشفت أيضاً أنّ الرجال بلا نساء، والنساء بلا أطفال، والأطفال بلا آباء، وأنّ الباقين فقدوا روابطهم، أو أنّهم وضِعوا في غربال كثير الثقوب، ليتساقطوا مع مرور الدقائق، متروكين لحتفهم ولمصيرهم المجهول.

بحثت بلهفة عن نوبار، قالت امرأة بصوت واهن إنّه سقط من الإعياء، ولم يتسنّ له دخول العربات، وقالت امرأة أخرى إنّ نوبار مات لحظة وصول القطار، وقال أحد الأطفال إنّ نوبار لم يمت، وقد يكون في إحدى العربات، وأعقبه تعليق امرأة متهدّلة الكتفين محنية الظهر قائلة: لنوبار بنية قوية وهو في مكان ما.

كيف يولد الأمل؟ وهل تستطيع آرشا تفسير ما أصاب هؤلاء؟ كلّ ما حولها يشير إلى حدث جديد، توقّعات مدّت الأجساد ببعض قوّة دفينة، فهذه الهياكل المتبقية، مازالت تحتفظ في مكان ما بمشاعر حبّ البقاء، أو إنّهم يجترون ما كان غافياً، في زاوية ما في أحشائهم أو رؤوسهم، ليعلن لهم أنّهم ما زالوا أحياء، وأنّ قدرتهم لا محدودة.

حضنت آرشا الطفلة، وتساءلت للمرّة الأولى عن اسمها، فهمس واهان وهو يلفّ ذراعه على خصرها، إنه سيدعوها سيما.

سيما رفيقة عمّي آفو في الطفولة، وزوجة أبي في طريق الحياة، هل أحببتها يا أبي؟

- ما رأيك؟

- وهل أحبّتك هي؟

- ألا تكفّين عن الأسئلة؟

شعرت آرشا فجأة بالغثيان، وأرجعت ما هي فيه إلى هدير القطار، وإلى الروائح المنبعثة من زوايا العربة، فقد قيل إنّ هذه العربات مخصّصة لنقل الماشية، وتخزّن في الجدران والأرض والسقف ما لا يستطيع البشر إزالته، لكن! وقبل أن يتوقّف القطار، كانت آرشا قد تقيّأت هواء وسائلاً مُرَّ المذاق، واكتشفت أنّها قادرة على الشعور بالخوف، فهل دهمها المرض؟ وهل ستموت؟ تذكّرت طفلتها ريتا، وغمرتها رغبة في البكاء، ما الذي سيحدث لواهان؟ ما الذي سيحدث لسيما؟

بعد ساعات توقّف القطار. نسيت آرشا خوفها، وهبطت مع الآخرين من العربة، لترى بقيّة العربات تتقيّأ الأجساد، وفي خضمّ هذا الحشد المتراكم لم تجد نوبار.

- أرأيت يا لورا؟ ها قد وصلنا إلى مدينة حلب، والإبادة لم تحدث.

هذا ما حدث. حدّد مجلس الدولة أماكن الإقامة، في الأقضية التابعة لمدينة حلب، وجاء أمر آخر بالإقامة في

دير الزور، عند نهر الخابور.

- إذن وجدوا أخيراً مكاناً للاستيطان.

كنت أقرأ في مذكّرات نعيم بك، وكان آنذاك يعمل أميناً لإدارة حصر التبغ في رأس العين، حين اطّلع على أوامر عدّة مرسلة بالشيفرة، تقضي بالموت على أمّة الأرمن بنسائها ورجالها وأطفالها.

- لأنّ الأرمن يحملون أفكاراً ملعونة، هذا ما قاله وزير الداخلية طلعت باشا، وعليه أن يضمن سعادة وطنه ومستقبله، هذا حقّه كمواطن تركي، وغير هذا فهو مخالف لهدف الحكومة المقدّس.

- لا تمزح يا أبي.

- أنا لا أمزح، قرأت هذا في مذكرات نعيم بك وغيره.

- أريد القراءة بنفسي.

- ستقرأين أنّ نعيم بك رفض أوامر الإبادة، واستنكر تهجير الأرمن وتجويعهم.

- كثيرون استنكروا ذلك، كما فعل شريف مكّة، وطالب بحماية الأرمن لأنّهم أهل كتاب.

- يجب أن تحدث أمور كهذه، في الحياة يوجد شرّ، كما يوجد خير، هل تعلمين لماذا؟ من أجل التوازن الإنساني.

قال هذا ونهض قبل أن أعلّق بكلمة.

افترشت آرشا الأرض، وقرفص واهان قربها، أمّا الطفلة التي لم تكفّ عن البكاء فقد لفتت انتباه سكّان المنطقة. جاءتها امرأة بزجاجة حليب، وأحضرت أخرى خبزاً ولباناً، وبعد أن مضغ واهان قليلاً قال إنّ بلعومه يؤلمه، فبكت إحدى النساء، ومسحت بيدها على وجهه وعينيه.

ما الذي ستفعله؟ وما الذي سيفعله كلّ هؤلاء الأرمن؟ قيل إنّ أعدادهم تقارب الألف وخمس مئة شخص، وإنّهم الدفعة الثانية التي تصل إلى شمال حلب، أمّا مَن سبقوهم فقد هُجّروا من جديد إلى مناطق متفرّقة من البلاد، عدا بعض الأطفال اليتامى، الذين تبنّتهم بعض الأسر من سكّان المنطقة، وبعض الفتيات اللواتي تزوّج منهنّ بعض شبّان العرب.

تساءلت آرشا ماذا تفعل؟ وشعرت بحاجتها إلى نوبار ونصائحه. ما تعرفه أنّها قريبة من مدينة حلب، وأنّ الوجوه المحيطة هم من العرب، تلك الوجوه التي ذكّرتها بأنّ للإنسان وجه الحبّ والأمل، وأنّ باستطاعته أن يتألّم ويتأسّى ويبكي. كانوا قد اندفعوا بالعشرات، وعلت أصواتهم معربة عن الأسف والاستنكار، كانوا يهرعون حاملين الأطعمة والملابس، وكانوا حائرين، ما الذي يفعلونه أمام هذا المدّ البشري؟ وماذا يقدّمون لهم؟

خلال أيام نُصبت الشوادر على امتداد البصر، وتأمّنت لهم أماكن للإقامة، وراح الجميع يبحثون عن عمل، النساء والرجال، بينما تدفّقت الإعانات من الجوار، وتدافع سكّان المنطقة حاملين المؤن.

كان صعباً على آرشا أن تعمل كما فعلت نساء كثيرات، فقد عملن خادمات في البيوت، لقاء المأوى والغذاء، أمّا هي فمسؤوليتها تعيقها عن العمل، وعليها رعاية الطفلة سيما، التي أصبحت في وجدانها الابنة الضائعة، ريتا التي عوّضها الله عن فقدانها.

لاحظت على وجه أبي أنّه يرغب في الحديث، لكنّي كنت أنتظر ما ستفعله جدّتي آرشا، وأعرف المزيد عن ملابسات تلك الفترة، وهل سيخضع الأرمن من جديد للمخطّطات؟

تتالت خلال ذلك البرقيات الموجّهة من وزارة الداخلية، بشأن «الأشخاص موضوع البحث». قال أبي جادّاً:

- أرأيت أهمّية الأرمن «الأشخاص موضوع البحث»؟ في الماضي أطلقت عليهم الدولة العثمانية «أبناء الأمّة الصديقة».

تقول البرقية، الموجّهة من وزير الداخلية طلعت باشا إلى والي حلب، في أيلول/سبتمبر عام 1915:

«علمنا أنّ بعض أبناء الشعب والموظفين يتزوّجون النساء الأرمنيّات، ومع منعي ذلك منعاً باتاً، أصرّ على

التوصية بإرسال النساء من هذا النوع إلى الصحراء بعد طلاقهنّ».

أمّا البرقية الثانية الموقّعة أيضاً من وزير الداخلية طلعت باشا، إلى والي حلب، في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، فتقول:

«بالرغم من وجوب إبداء حماسة شديدة لإبادة الأشخاص موضوع البحث «الأرمن» علمنا أنّ هؤلاء يُرسلون إلى أماكن مشتبه فيها مثل سوريا والقدس، إنّ مثل هذا التساهل خطأ لا يُغتفر، إنّ مكان نفي مخلّين بالأمن من هذا النوع هو العدم، أوصيكم بالتصرّف بالشكل اللازم».

قال أبي بدهشة:

- هل قرّرت قراءة جميع البرقيات يا لورا؟

كان هذا عملاً صعباً، لكنّ تلك البرقيات تأمر كلّها بنفي الأرمن من بلدة إلى أخرى، ومن صحراء إلى أخرى، وأن يجوعوا ويمرضوا، وأن يعيشوا الوجع والألم، وتُمنع عنهم المساعدات: عاقبوا من يساعدهم، ادفنوا جُثث الأموات منهم، اقتلوا من يلتقط صور جُثثهم، اعتقلوا الصحافيين الذين ينقلون أخبارهم، على من تزوّج من امرأة أرمنية أن يطلّقها كي تُرسل إلى الصحراء، لا يمكن للأرمنيّ اعتناق الإسلام إلاّ بعد وصوله إلى المنفى. أبيدوا بوسائل سرّية كلّ أرمني من المقاطعات الشرقية، تعثرون عليه في منطقتكم، فلن يهنأ طلعت باشا ما لم يختفِ الأرمن من الوجود.

وتقول البرقية رقم 603 المؤرّخة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 والصادرة عن وزير الداخلية طلعت باشا إلى ولاية حلب:

«علمنا بأنّ أطفال الأشخاص المعروفين «الأرمن» المنفيّين من ولايات سيواس ومعمورة العزيز، وديار بكر، وأرضروم، الذين تيتّموا وأصبحوا دون مُعيل نتيجة لموت ذويهم، قد تبنّتهم عائلات مسلمة أو أخذتهم كخدم. ونُهيب بكم البحث عن كلّ الصغار الذين هم في هذا الوضع وإرسالهم إلى منفاهم، ومن ثمّ تحذير السكّان بهذا الصدد بالطريقة التي تجدونها مناسبة».

أمّا عبد الأحد نوري بك، المدير العام المساعد لشؤون المنفيين آنذاك، فقد... قاطعني أبي قائلاً:

- ما به نوري بك هذا؟ هل ستذكرينه أيضاً؟

حين دُعي نوري بك إلى الباب العالي ليتسلّم وظيفته، أسرّ طلعت باشا في أذنه أنّه لا يريد بعد اليوم أن يرى هؤلاء الأرمن الملاعين في تركيا.

وقد جاء في البرقية رقم 344 من عبد الأحد نوري إلى رئيس إدارة المنفيين في الباب العالي:

«لا تهتمّوا بوسائل النقل، فالمنفيّون يستطيعون الذهاب مشياً على الأقدام.

إنّ إرسال المنفيين لا يجب أن يشبه أبداً رحلة ترفيهية، ولا تولوا أيّ اهتمام للشكاوى والأنين، إنّ

التعليمات الضرورية قد أعطيت من الولاية أيضاً إلى القائمقام».

أمّا البرقية رقم 75 من عبد الأحد نوري أيضاً، إلى المديرية العامّة لتوطين القبائل والمنفيين، فتقول:

«ثبت بعد التحقيق أنّ عشرة في المئة على الأكثر من الأرمن الخاضعين للنفي العامّ قد وصلوا إلى منفاهم، وأنّ الآخرين ماتوا في الطريق بسبب الجوع، والأمراض، وغير ذلك من الأسباب الطبيعية المماثلة. آمل تحقيق النتيجة نفسها بالنسبة إلى الباقين على قيد الحياة بمعاملتهم بشدّة».

- كم كان هذا بشعاً.

- أهذا ما توصّلت إليه؟

- لست أنا، إنّه التاريخ والوثائق.

شعرت فجأة بدُوار. أذكر أنّ كل ما حولي راح يدور، وشيئاً قاسياً يرتطم برأسي. ناديت أمّي ثمّ أبي، ولا أذكر بعد ذلك ما حدث، إلى أن استيقظت منهكة. عرفت أنّني في أحد المشافي منذ أسبوع، وأنّني مررت بحالة إرهاق شديد، لكنّني تعافيت الآن.

تسرّبت الطمأنينة إلى نفوس الأرمن، فكلّ الأمور توحي لهم بذلك. لمسوا جدّية في تحديد أماكن الإقامة، وسيكون لهم المأوى وربّما العمل، وكان من أهمّ تلك الأمكنة بلدتا المعرّة والباب، وبعض القرى المجاورة. فرحت آرشا وهم يسجّلون اسمها واسم أسرتها الصغيرة في الدفاتر الحكومية، وشعرت بضرورة نسيان الماضي أو تجاهله، فالأمور تسير نحو الأفضل، والحاضر يفرض مسؤوليات كبيرة، وعليها التفاني لتأمين أسباب العيش لواهان وسيما.

لم تهدأ الأمور طويلاً، فقد جدّت أحداث عدّة، وكان على المسؤولين الاستجابة لأوامر وزارة الداخلية، التي رأت إبعاد الأرمن عن المنطقة، وكان على الأرمن الامتثال لتصرّفات الشرطة، التي تولّت ترحيلهم إلى مناطق أخرى.

خلال ذلك، نُقل بعض رجال الأرمن فجأة، إلى معسكر اعتقال المنفيين، في مكان يسمّى قارلك، يبعد عن مدينة حلب ما يقارب العشرين دقيقة، وهو معسكر سيّئ السمعة. وقيل إنّهم ينفّذون أوامر وزارة الداخلية.

لم تستجب النساء في البداية، فاجتمع بعضهنّ، واتفقنَ على تقديم التماس وقّعن عليه، إلى دوائر الدولة، لكن مساعيهنّ باءت بالفشل.

فوجئت آرشا بأمر التهجير مرّة ثانية، وبأمر الإبعاد إلى الداخل، وبالتحديد ما بين مسكنة ورأس العين ودير الزور. وأدهشها أنّ بعض أولئك النسوة صدّقن المزاعم التي قيلت لهنّ، وهي أنهنّ سيلتقين أزواجهن هناك. تذكرت ما رواه أخو زوجة الآغا، وما شاهده من فظائع على طريق رأس العين، حيث نُكّل بالآغا ربّما. غير أنّ آرشا أيقنت أنّ ما يقال هو جزء من تخطيط لم تتمّ فصوله، وأنّ عليها الانصياع للأوامر.

تآلف الأرمن خلال ذلك، فقد جمعتهم المصائب، وراحوا يتداولون شؤونهم وتوقّعاتهم لما قد يحدث لهم. في تلك الفترة تردّد كثيراً اسم البك مصطفى عبد الخالق، فهو الآمر الناهي على ولاية حلب، والذي يحقّ له غضّ الطرف عن وجودهم أو نفيهم، إلى أن توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن لا شيء ينفع مع هذا البك، وخصوصاً أنّ المساعد الخاص لأمور المنفيين، وهو البك عبد الأحد نوري، أشدّ قساوة منه.

رُحّل الأرمن على دفعات، وكانت الأخبار تأتي تباعاً، فقائمقام تلك المناطق يوسف ضياء بك، أعلن أنّ الأمكنة لم تعد تستوعب أفواج الأرمن، في حين أنّ المئات منهم يموتون، سواء على الطرقات أو بعد الوصول، فأتى الردّ يقول:

«نشّطوا عمليات الإرسال، وبهذا الشكل، فإنّ أولئك الذين لم يشرفوا على الموت بعد، سيموتون على بعد

كيلومترات قليلة من المدينة، وهكذا سيتمّ تنظيف القضاء من الأحياء ومن الأموات».

تذكّرت آرشا نوبار، الذي غاب وغابت معه التوقّعات. تُرى ما الذي ينتظرها من جديد؟ لماذا كُتب على أبناء جلدتها ما كُتب؟ كلّ الأرمن الذين تعرفهم كانوا طيّبين، كلُّ أنسبائها موالون للحكومة، لم يكن للأرمني مطالب، عدا أن ينجح في عمله، أو يعيش بكرامة، أمّا أولئك الثوّار، فهي لا تعرفهم، وربّما ساهموا، دون أن يدروا، في عذاباتهم، أو كانوا ضحيّة تخطيط ما. هذا ما كان ينصحهم به الكاهن، الذي قتل بعد ذلك، ونُكّل بجثمانه. أمّا الذين حثّوا أولئك الشبّان الأرمن على الثورة، فكانوا يعرفون ما سيجري، وهم أكثر عداء للأرمن.

ما خفّف عن آرشا القلق أنّ السفر لن يكون سيراً على الأقدام، كما حصل للرجال منهم. كانت قد استعادت بعض القوة، خلال تلك الأيام القليلة في شمال حلب، ما منحها بعض الراحة، وأمدّها بالقدرة على المتابعة من جديد، وريثما تتساقط مع بقيّة النسوة عند أبواب رأس العين، ستكون على استعداد لاستقبال الآتي من الأحداث.

ربّما صدّقت آرشا أنّ رأس العين ستكون نهاية المطاف، كما صدّق أكثر الأرمن المهجّرين، وقد يكون سبب ذلك ما لاقوه من اهتمام وتعاطف حولهم، فالشركة السويسرية المخصّصة لبناء السكك الحديدية، والتي تحتاج إلى مزيد من العمّال، حضنت الكثير منهم.

ولم تكن آرشا تأمل في العمل المحصور بالرجال فقط، لكنّ ما يدور من أحاديث منحها بعض الطمأنينة، وتجاهلت، كما فعل غيرها، احتجاج بعض المسؤولين على ما يلاقونه من معاملة حسنة من قِبل المهندسين المختصّين في تلك الشركة.

عاود الشعور بالغثيان آرشا، التي ارتعبت فجأة، إذ تذكّرت أنّ دورتها الشهرية قد غابت منذ أشهر، ودهمتها صورة قطّاع الطرق، وصورة الوحش الذي افترسها، فخجلت ووارت وجهها بين كفّيها. كان عليها أن تموت قبل هذا.

لا تدري آرشا كيف تجاهلت حملها؟ أبسبب الجنين الذي أصرّ على البقاء؟ أم بسبب المحاولات البدائية التي قامت بها ولم تُجدِ نفعاً؟ أم أنّ الحظّ الذي ابتسم لها أخيراً ألهاها عمّا هي فيه؟ هل يكفي أن تسكن كوخاً حقيراً، ملاصقاً لدار علي سعاد بك حاكم المنطقة، وتأكل فتات موائده، أو أن يعمل ابنها خادماً في بيته المحترم وعند أسرته الثريّة؟

أصبح واهان معيلاً للأسرة، لكنّه لم ينسَ السؤال الذي كان يردّده ببراءة: متى عرفت أمّه أنّها حامل، قبل مغادرتهم مدينة وان أم بعد ذلك؟ كان يعرف لماذا تتساقط الدموع من عينيها، فكان يحضنها ويقبّلها، ويعِدها بأن يصبح شاباً، ويغدق عليها المال، ويعوّضها عن الأيام الصعبة التي مرّوا بها، فتجيب في كلّ مرّة:

- الحمد لله، أسرة علي سعاد بك طيّبة وعطوفة.

وجدت آرشا، كما وجد بقيّة الأرمن في رأس العين، بعض الهدوء والاستقرار، ربّما بسبب العمل المتاح لهم، أو المعاملة الطيّبة التي لاقوها من حولهم، أو مساندة الحاكم لهم في كل مناسبة. بالنسبة إلى آرشا، كان الاستقرار في هذه البلدة، يعني أنّها ستتمكّن من رعاية أسرتها الصغيرة، واهان وسيما، ثمّ طفلها آفو، ابن الحرام الذي لم تعرف طريقة لإجهاضه.

في تلك الفترة لم يغب زوجها نازار من ذاكرتها، ما الذي ستقوله له إن التقته؟ من هو آفو هذا؟ كيف ستعترف أو تعتذر؟ هل يغضب ولا يسامح؟ أم أنّ ظروفه القاسية سترشده إلى طريق الغفران، أو تذكّره بظروفها، حيث لم يكن لها حول أو قوة.

كان علي سعاد بك رجلاً طيّباً وعطوفاً، اتّصف وأسرته بالتواضع والمحبّة، فكانوا يجودون على الأرمن، ولا سيّما النساء منهم، فيؤمنون لهنّ العمل، أو يقدّمون المساعدات، تعاطف معهنّ بعد أن وقعن في أيد ظالمة وشرسة، لا تعرف الرحمة أو الشفقة.

بكى علي بك يوم قدوم الأرمن، بكى على الحالة التي هم فيها، ولم يصدّق أنّ بمقدور الإنسان ممارسة العنف بتلك الوحشية، ومنذ اليوم الأول أغدق عليهم من عطفه، وأقسم على حمايتهم حتّى الرمق الأخير.

لم يكذب علي بك، ولم يتراجع عن قراره. ففي ذلك اليوم نادى بعض الأطفال، وطلب من أطفاله اللعب معهم، ولكي يُظهر تعاطفه الشديد، أو لأنّه أراد تقديم المساعدة بطريقة أكثر صدقاً، أو ليغسل عن أجسادهم ما لا يريده لأعماقهم، فقد رافقهم إلى حمّام عربي، وعرف الجميع أن الحاكم عاد طفلاً يشارك الأطفال في اللعب والمزاح، ولم يكتف بذلك، بل راح يسكب عليهم الماء الدافئ، وهو يذرف الدموع، ويلعن من جلب عليهم المصائب والأهوال.

لكنّ المصائب لم تنته، ولم يستطع علي بك إيقافها، فقد تتالت الأوامر والبرقيات، بخصوص الأشخاص موضوع البحث، وبالتالي لم يكن أولئك الأرمن يعرفون ما الذي ينتظرهم من جديد، وأنّهم سيطردون من رأس العين، ومن المنطقة كافة، ويهجّرون نحو الصحراء، بكل الوسائل والسبل، فوجودهم وتأمين الراحة لهم مخالف لهدف الحكومة المقدّس.

هبّ علي بك لردّ العدوان، ولم يترك سبيلاً إلاّ سلكه، فردّ على البرقيات رافضاً الامتثال لأوامرها، ولجأ إلى المسؤولين في شركة بناء السكك الحديدية طالباً المؤازرة والتعاون، لكن المحاولات جميعها باءت بالفشل، واكتشف علي بك أنّ الهدف هو قتل الأرمن وتصفيتهم، وأنّه لا يعرف لإنقاذهم سبيلاً، ولا يعرف كيف يجعل غيره يفعل ذلك، خصوصاً أنّ والي حلب قال في أحد تقاريره:

«تبيّن أنّ الأرمن في رأس العين استقرّوا هناك، وأنّ حاميهم هو علي سعاد بك، ولم يستجب للأوامر، وبقي يعطف عليهم، وجميع الأرمن يعترفون بأفضاله».

وكان أن عُزل الحاكم علي سعاد بك، واستؤنفت عمليات تهجير الأرمن.

سألت آرشا:

- هل سنهجّر يا سيّدي؟

مسح علي بك على رأس واهان، وهو يهزّ رأسه بالنفي.

وقالت زوجة علي بك:

- ادخلي في دين الإسلام، فقد يقيك ذلك شرّ الأتراك.

تذكّرت صديقتيها نظلة وأظنيف، ورفضها يومها للفكرة، غير أنّها الآن ستفعل.

تلك الأيام، أتت برقية من وزارة الداخلية إلى والي حلب، تقول:

«أبلغوا الأرمن الذين يطلبون رغبة منهم في تجنّب النفي العامّ (نحو الصحراء) اعتناق الإسلام، أنّهم لا يمكن أن يسلموا أبداً إلاّ بعد ذهابهم إلى منفاهم».

قال علي سعاد بك:

- ابقي على دينك، وستبقين في حمايتي، واللعنة على أولئك المجرمين.

عاشت آرشا وأبناؤها الثلاثة في رعاية أسرة علي بك، ولم يكن لها من متطلّبات سوى تربية أطفالها. كانت تتناوب وواهان على المكوث في البيت، ينتهي هو من

عمله لتبدأ رحلة عملها هي، فتساعد زوجة علي بك، التي اكتشفت براعة آرشا في غير مجال، خصوصاً في حياكة الصوف أو خياطة الأثواب، فنصحتها بعمل شريف يدرّ عليها ما يقيها شرّ الحاجة، وتحوّلت آرشا إلى امرأة تصنع أجمل الأثواب، وهي قريبة من أطفالها في بيتها الصغير الذي باتت تؤمّه بعض النساء المقرّبات.

لم يفارق آرشا شعورها بالامتنان لتلك الأسرة، فكانت تتفانى هي وواهان لتلبية احتياجاتهم. وكان واهان قد شبّ قليلاً، بينما ظهرت على سيما ملامح الصحّة والنشاط، على عكس آفو الذي بقي هزيلاً، تنتابه نوبات تشبه حالات صرع خفيف، ردّه الطبيب إلى سوء في التغذية أثناء فترة الحمل به، وقد يخفّ عاماً بعد عام.

أصبح لآرشا دخلٌ يقيها شرّ الحاجة. ولم تتوقّف أحلامها على رأس العين وحسب، فما زالت أيّام حلب تستهويها، وتُعرب بين الحين والحين عن أملها بالعيش في تلك المدينة. كان واهان أشدّ رغبة في الانتقال إلى مدينة أكبر شأناً، يستطيع فيها تحقيق أحلامه، والاستعاضة عن سنوات القحط التي مرّ بها، فتشجّعه أمّه التي تحاول جمع المال الضروري، سواء لتأمين السكن والمعيشة، أو لبداية عمل يحقق لهم مردوداً مقبولاً.

في ساعات الهدوء تستعيد آرشا ذكرياتها. وأكثر ما كانت تشتاق إليه تلك السنوات الجميلة في مدينة وان، يوم عرفت معنى الزواج والأمومة، والحبّ والأمل والاكتفاء، وبستان التوت الذي لا يبارح مخيّلتها، وتلك الأشجار الغنية بالعطاء، والبيت على صغره وغرفه المتلاصقة، يبدو أكثر اتساعاً، وأكثر راحة وطمأنينة.

لن تنسى كلّ هذا، ولن تنسى أنّها هُجّرت وشُتّتت أسرتها، لأنّ موطنها هناك، هناك ولدت وشبّت، وهناك ولِد أجدادها وذووها. إنّها تعيش في غربة وقهر لا ينتهيان، وتحلم دوماً ببلدها، تحلم بجذر صغير ينبت بين جذورها، هنالك ستروي عطشها، وتسقي تلك الجذور كما كانت تفعل، وكما كانوا يفعلون.

أتى خبر تلك الأيام مفاده أنّ أفراداً من الأرمن التقوا ذويهم، فهل ستلتقي أمّها أو أخاها أو ابنتها ريتا؟ أم هل تلتقي زوجها نازار؟

نازار الذي ستنتظره إن أتى وإن غاب للأبد، ولن تفعل كما حدث مع المرأة المقهورة سيفان التي فقدت زوجها، والرجل الحزين زهراب الذي فقد زوجته، فقالا نرتبط بشروط، قالت هي نفترق إن التقيت زوجي، وقال هو نفترق إن التقيت زوجتي، لكنّ آرشا أقسمت أنّها لا تريد الارتباط بغير زوجها نازار.

قبل أن تنتقل مع أسرتها إلى مدينة حلب، مرّت على البلاد أحداث كثيرة، فقد أُعلنت ثورة الشريف حسين حاكم مكّة، وقيل إنّ سكّة قطارات دمشق-مكّة قد فجّرت، ومُنع على الأتراك إيصال دعمهم العسكري إلى الحجاز. وفي تلك الأيّام استولى الثوّار على مدن كثيرة في المنطقة، وبين عامي 1916- 1918 حُرّرت مكّة والعقبة، والأردنّ وفلسطين، ثمّ دمشق، وأعلنت سوريا استقلالها تحت رئاسة الملك فيصل، ابن الشريف حسين.

عام 1919 أكمل واهان الخامسة عشرة من عمره، أمّا سيما التي تكبر آفو بعام تقريباً، فأصبحت في سنّ الخامسة. وبدت آرشا في تلك الفترة أكبر من عمرها بسنوات، هدّها التعب واستهلكتها المسؤوليات، هزلت ورقّت، وظهرت الخطوط على وجهها الذي كان ينضح نضارة، وظهرت خصلات بيضاء متفرقة في شعرها الذي كان غزيراً جميلاً ولامعاً.

تتالت الأحداث تلك الفترة، فيوم حُرّرت حلب من الحكم العثماني، قرّرت آرشا الانتقال إليها، وكانت الأخبار تتوالى تباعاً بأنّ الأرمن المهجّرين فيها يلاقون معاملة حسنة، وهم متساوون مع سكان البلد، في جميع الأمور المعيشية، لهم حق العمل والعلم، ويعاملون أحسن معاملة.

انحصرت تطلّعات آرشا في مستقبل أبنائها، ففي حلب ستُتاح لهم فرص جديدة، وإذا كان واهان لم

يستفد دراسياً، فإنّها ستسعى لمساندته ومساندة سيما وآفو، وستعمل في الخياطة كما فعلت في رأس العين.

لم يشأ علي بك وأسرته التمسّك بآرشا وأسرتها، لكنّهم تأثروا لفراقهم، وساعدوهم على السفر، وقدّموا خدماتهم التي ستبقى في ذاكرة آرشا صوتاً إنسانياً لا يعرف الشرّ، فحمل الوداع مزيداً من الامتنان لتلك الأسرة، وكثيراً من التمنّيات لأسرة آرشا، وحمل السفر لواهان، الذي دخل مرحلة الشباب وعوداً بالاستقرار وشعوراً بالمسؤولية، بينما رافقه التخوّف الذي راح يتضاءل، مع اقتراب الوصول إلى حلب.

وجدت آرشا في مدينة حلب المكان والأمان، واستطاعت استئجار غرفة جانبية في حيّ يدعى الكيدون وهو مكان خاصّ بالأرمن. كانت غرفتها ملاصقة لغرف متعدّدة، يسكنها جموع من الأُسر المهجّرة، وقيل إنّ من حالفه الحظّ انتقل إلى بيت أكثر اتساعاً ورفاهة. كان بعض السكّان ما زال يعمل بلقمة عيشه، غير أن الجميع أصبحوا في راحة وهدوء، عدا تلك النظرات البائسة التي لا تفارق وجوههم، وذلك الصمت الذي طغى على جلساتهم، أو حين يلتقون معارفهم.

على قلّة الرجال نسبة إلى النساء، فقد طغى على أعمالهم كل ما له علاقة بالأمور الفنية، كصيانة الآليّات، والعمل في الكهرباء والميكانيك، أو كأجراء في الكاراجات أو مضخّات البنزين، على خلاف أبنائهم،

الذين جدّدوا أمجادهم في وسط أتاح لهم النهوض والاستمرار.

اختلفت تطلّعات آرشا، وراقت واهان الفكرة التي طرحتها أمّه، فعمله سيحتاج إلى آلة تصوير، يطوف بها في المتنزّهات، أو الحفلات العامّة والأعراس، وكانت آرشا تتابعه بلهفة، وتصف عينه الثاقبة بعين فنّان، ولا بدّ هنا من إشارتها إلى عامل الوراثة، فأبوه كان مبدعاً وفنّاناً.

- هذه هي جدّتك يا لورا، لم تنسَ جدّك، وتُرجع كلّ جميل إليه.

- وأنت ألا تذكر جدّي يا أبي؟

برقت عيناه، وجدتُ فيهما فرحاً، وجدتُ جدّي يحمله بين ذراعيه، وجدتُ في حركة أبي شوقاً إلى الماضي، لم يمت جدّي في عيني أبي، ولا يزال ينتظره كما انتظرته جدّتي، ولكم أحببت عندها جدّي وجدّتي، وأبي وعمّي آفو، وسيما التي ستصبح أمّي.

لكنّ واهان الشاب تجاهل كلّ شيء، انحصر همّه في العمل، والولاء للبلد الذي حضنه وحماه، كما فعل بقيّة الأرمن، وكما سيصبحون مواطنين، يجمعهم بالوطن وحدة الحال، والمشاركة في الحياة بكلّ مجالاتها.

انكبّ أبي فوق أوراقي، وراح يقلّب صفحات الكتب التي أقرأ فيها، وبدا غاضباً مستنكراً، ثمّ نهض وبين يديه الأوراق والكتب، وعلى وجهه أمارات التحدّي وقال:

- ربّما لا علاقة للحقيقة بكلّ هذا.

أطلّ وجه أمّي التي ساندتني بجدّية وهي تردّ عليه قائلة:

- ما بك يا واهان؟ هي لن تختلق الأحداث، أنت تعرف هذا جيّداً.

- أنتما لا تعرفان شيئاً، أكثر ما شغلك يا سيما آنذاك أن تلعقي ثدي أمّك، أو تقطر آرشا ماء وسكّراً في فمك، وأنت يا لورا، وبعد أكثر من خمسين عاماً، تحاولين استحضار ما يُقال في الكتب، لا يهمّني إن كتب نعيم بك أو غيره، أو إن قال فائز الغصين أو لم يقل، أو إن سجّل السفير الأميركي مذكّراته أو تُرجمت إلى العربية، لا يهمّني جون هاسلب أو فيليب عطا الله، لا يهمّني هم أو غيرهم، ولا إن أكدوا ذلك أم نفوه، يهمّني أنّنا وصلنا إلى برّ الأمان ولم نمت.

- وعمّتي ريتا، ألم تمت؟

لم يقل أبي الحقيقة، ريتا أخته التوأم التي اكتشفنا بعد سنوات، أنها حية، وتعيش في أحد المصايف الجميلة، والتي تعرّف إليها أبي عن طريق المصادفة.

كان قد مرّ زمن، وشبّ واهان، وكبر كل من سيما وآفو، ومرّت أحداث كثيرة ، كان أجملها يوم تزوّج أبي من سيما، وزنّرت جدّتي معصمه بساعة أبيه قائلة له: إنّها شاهد على الزمن الذي نختصره، لنلتصق ثانية بمن رحل.

يوم أنجبانني، اختلفا على تسميتي، آرشا أم لورا. لكنّ أبي لا يريد الرجوع إلى الذكريات البعيدة. وأكثر ما كان يودّ الحديث عنه تلك الأيام في رأس العين، التي على مرارتها، ما زالت في ذاكرته خطوة جادّة وجميلة، نحو الحياة واستمرار العيش.

لم تتحدّث جدّتي عن تلك الحقبة التي مرّت على بلاد الشام، إذ لم ينجُ العرب من خطط الدولة العثمانية آنذاك، فما إن هُجّر الأرمن من بلاد الأناضول، حتّى تمّ ترحيل مئات الأسر العربية إلى تلك البلاد، واختير منهم الأثرياء وأصحاب النفوذ. قيل يومذاك إنّ إبعادهم كان ضمن خطّة إضعاف العرب، فقد ترافق ذلك مع سياسة التجويع، ففرضت الضرائب وصودرت المحاصيل والمواشي، بحجّة تموين الجيش، فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء.

هل هو «سفر برلك» الذي حدّثتني عنه جدّتي؟ يوم أصبح رغيف الخبز حلماً، واستبدل بطحين الحنطة طحين الشعير، الذي تهافت الناس عليه، وقلّ وجوده شيئاً فشيئاً، يوم مات الآلاف في بلاد الشام من الجوع، وأصبحت حالة الجميع مُزرية، إذ كان تأمين البضائع

مستحيلاً، فالخيل والبغال والدوابّ سُخّرت جميعها لقضاء حاجات الجيش؟ وأسفرت تلك الإجراءات عن تفشّي الأوبئة والأمراض القتّالة، وانتشرت حمّى التيفوس في أكثر البلاد، بينما أُبعد الأطباء لخدمة الجيش، وخلت الصيدليات من الأدوية.

- هل تدري معنى بلاد الرافدين يا أبي؟

هي البلاد التي كانت تفيض لبناً وعسلاً، والتي اشتهرت بالرخاء، هي التي أمست اليوم خراباً، وخيّم العُسر عليها، وضرب الجوع والفقر أطنابه فيها، وبارت التجارة وتوقفت الصناعة وقلّت محاصيل الزراعة.

- أعرف هذا يا لورا، لكن هل تعرفين أيضاً، أنّ قوافل الجراد تلك الأيام هجمت على تلك البلاد، وحصدت ما تبقى من المحاصيل، وما قد يقتات به الناس، كأنّ الغضب قد حلّ على المنطقة، التي ما فتئت تصطلي بمطامع المستعمر. فقلت ثانية:

- أمر عجيب يا أبي، هنالك يكفّرون الأتراك غير المسلمين، وهنا تصطلي البلاد بمطامع المستعمر، فالدول الأوروبية تتكالب عليها، وترسم الخطط لتقسيمها بين فرنسا وإنكلترا.

لم يردّ أبي، فقلت متسائلة:

- ربّما كان لسياسة التجويع دور، فهل كان جمال باشا يخطّط لإضعاف مقاومة الناس من أجل الاستسلام للتقسيم؟

قال أبي ضاحكاً:

- عدنا إلى المزاح يا لورا؟ وهل جمال باشا هو من أرسل الجراد؟ لقد أراد حماية بلاد الشام، وسعى لإقامة المساواة فيها، وهو الذي رفض فكرة إبادة أو تهجير الأرمن لأنّهم أصدقاء له.

- لكنّ التاريخ أثبت عكس ذلك، فيوم أصدر الاتحاديون الأوامر، عارض هو الفكرة كما قال في مذكّراته، وفضل تسميتها بالنقل بدل التهجير أو الإبادة، وقال أيضاً إنّه نصح بنقلهم إلى سوريا ولبنان، لأنّ ذلك أسهل من نقلهم إلى العراق، وله الفضل الأكبر في الإبقاء على مئة وخمسين مهاجراً، ألا ترى يا أبي أنّ النتيجة لم تختلف، واختلفت التسميات؟

كان أبي يستمع إليّ، وكأنّ تلك المعومات لم يسمعها أو يقرأها من قبل، وكنت أكرّر الكلمات، فجمال باشا يريد حماية نفسه وموقعه السياسي فقط، والدليل أن توسّلات الشهبندر وخلوصي بك أو تدخُّل شريف مكة، لتحقيق الأمن وحماية البلاد، وإصدار عفو عن المعتقلين الأحرار، ذهبت أدراج الريح.

- قلت لك لا أحبّ التاريخ يا لورا، بيني وبينه عداء قديم.

- لكنّه الحقيقة الوحيدة في الحياة.

- هذا إن كان مكتوباً بصدق.

- ما بك يا أبي! الإنسان هو التاريخ، الذاكرة التي لم تُطفأ هي تاريخ، الأبناء، الأحفاد، الثورات التي ما زالت أنفاس أبطالها في كلّ مكان.

تململ أبي وعلى وجهه أمارات الجِدّ قائلاً:

- إني أمزح يا لورا، كنت في السادسة عشرة من عمري حين وقعت الثورة السورية الكبرى. يذكر أبي هذا جيّداً، ويذكر ما قيل يومها عن جمال باشا وخوفه من اشتعال الثورة، فندّد بالحسين، وسخّر الصحف لتشويه صورته، واتّهم الثورة بأنّها ليست لتحرير العرب، بل لتثبيت ملكية الشريف وأنجاله، ولم يكتف بذلك، فخلال شهر نفى الضبّاط العرب إلى ميادين القتال، وأغلق صفوفهم، وأغرى أحرار العرب وأقنعهم بقبول مناصب عسكرية خارج البلاد، ونصب المشانق وفتح أبواب السجون والمنافي.

جلس أبي واضعاً ساقاً على ساق، فقد قرأ في أحد الكتب تحليلاً حول مسيرة جمال باشا، يرجع تاريخه السياسي إلى شخصيته الخاصّة، إذ كان جمال باشا معجباً بخطط بعض السلاطين، ومنهم السلطان سليم، الذي فتك بإخوته وأهله ورجال دولته، لتآمرهم عليه وعلى المملكة، وربّما أُعجب بهذا السلطان، واقتنع بأسلوبه وبأفعاله، وتوصّل إلى أنّ على الخائن أن يعاقب.

- أشعر بالحزن لتلك الفترة، لماذا فعل أعضاء جمعية الاتحاد والترقّي كلّ ذلك؟ طلعت باشا هناك، وجمال باشا هنا؟

- قلت لك في السابق إنّ طلعت باشا بطل وطني، ولولا ذلك لما شيّدت الحكومة له صرحاً على هضاب

الحرّية، في استنبول، وأطلقت اسمه على جادة كبرى في أنقرة.

لم أردّ على أبي الذي تابع:

- لو لم يكن هكذا لما أطلقت الحكومة التركية الحاليّة اسمه على المدارس، هذا يؤكّد صدق وطنيّته.

- أهذا ما توصّلت إليه يا أبي؟

- أثبتي لي العكس، قولي إنّ الشعب التركي لا يعرف الحقيقة، أو لا يعرف مجابهة حكومته. أو...

أسفر المؤتمر السوري عن قرارات تاريخية هامّة. حدث هذا عام 1920، ونصّت القرارات على استقلال سوريا، بما فيها فلسطين، وعلى تنصيب الملك فيصل على البلاد. وأنشئت حكومة مسؤولة أمام المؤتمر، وشُكّلت لجنة لوضع دستور للبلاد، وعُقد مؤتمر القاهرة لترتيب أوضاع العراق، وبدت الأمور في تفاؤل وثقة. لكنّ أموراً كثيرة جدّت، منها رفض الحكومتين البريطانية والفرنسية قرارات المؤتمر السوري، ليعقب ذلك مؤتمر سان ريمو، وتقسيم البلاد فيه من جديد، ليصبح كلّ من سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، أمّا العراق وفلسطين فتحت الانتداب البريطاني.

كان أهمّ قرارات مؤتمر سان ريمو هو تأكيد الحلفاء آنذاك على تحقيق وعد بلفور، الذي ينصّ على تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود.

- يا إلهي! خابت كلّ الآمال من جديد.

- ماذا قلت يا لورا؟

- أرى في هذا كلّ الغرابة، لم تطل غيبة العثمانيين، حتّى أطلّ على المنطقة أكثر من وجه.

دخلت أمّي مندهشة، كيف لا نملّ تلك الثرثرات؟ أمّي التي لا تربطها بالماضي ذكرى، حفظت اللغة الأرمنية في مدرسة الأرمن الخاصّة، وتابعت العربية منذ الصغر، فباتت تجيد اللغتين بطلاقة، لكنّها لا تحبّ التاريخ،

قالت لي هذا أكثر من مرّة، وتستغرب اندفاعي الشديد للقراءة، فما يكاد المرء ينتهي من واجبات الدراسة، حتّى يدخل مرحلة أخرى من المسؤولية.

- لماذا تزوّجت من أمّي يا أبي؟

هو لا يعرف جواباً، ما يعرفه أنّ سيما جزء من تاريخه، وصورة مكرّرة عن أمّه، هنالك في وان بستان التوت، وهنا زاوية خاصّة بالعمل. آرشا ساعدت نازار في صناعة الحرير، وسيما تعلّمت كيف تخرج الصور إلى النور.

يوم توقفت آرشا عن العمل، كان واهان قد أصبح نجماً في المنطقة، كان ناجحاً ومحبوباً في آن، يُدعى في كلّ المناسبات، الأفراح والمآتم، فلعينه نظرة فنّان، وليده مهارة ممتهن. أمّا آفو الذي بدت عليه ملامح الذكاء والتفوّق فقد نجح في دراسته، كما نجحت سيما، غير أنّ المرض استعصى على مغادرة جسده الهزيل، وبات مهدّداً باستفحال حالته، التي تزوره في أدوار لا توقيت لها.

هل كان هذا سبباً في استهتار آفو بما تبقّى لديه من صحّة؟ هل شعور النهاية الذي لا يفارقه كان سبباً في تعاطيه الخمرة؟ هل ما هو عليه يشابه مُزاحه، الذي يتلقّى به كلّ أمور الحياة؟ أم أنّ مُزاحه الذي لم يُعقه عن متابعة دراسة الطب هو جزء من استهتار لهذه الحياة؟ أمور لم نستطع إدراكها، وبقيت غامضة إلى أن أغلق عليها كلّ الأبواب ذات صباح.

ذات صباح أيضاً، عرفت سيما أنّ أمّها ليست آرشا، وأنّ واهان وآفو ليسا أخويها، وأنّها يتيمة الأبوين، وأنّ بقيّة المعلومات ستبقى ناقصة، لأنّ الحقيقة باتت طيّ الزمن.

هل كانت آرشا تقصد إيصال الحقيقة إلى سيما، أم هل كانت تخطط لتزويجها من واهان، الذي أصبح رجلاً؟

قبل أن يتم واهان الثلاثين من عمره، قرّرت آرشا التفرّغ لمساعدته في عمله، أمّا آفو المنكبّ على القراءة فقد تفوّق ذلك العام، وانتقل إلى المرحلة الجامعية، وكان إلى ذلك الوقت خجولاً صامتاً، على عكس ما كانت عليه سيما، إذ تعلّمت من آرشا القوة والاعتماد على النفس.

انتقلت الأسرة من الكيدون إلى حيّ أطلق عليه اسم حيّ الأرمن. هنالك تجدّدت حياة واهان، الذي أصبح المسؤول الوحيد عن إعالة البيت، وخلال فترة وجيزة، تحوّل من مصور جوّال إلى مصوّر مقيم، وأصبح مالكاً لبيت ومكان خاصّ بالعمل. يومذاك طرحت آرشا فكرة زواجه من سيما.

ما زال واهان يذكر أمّ سيما وأباها، يذكر أخويها اللذين ماتا واحداً إثر آخر، ويشعر بفضل أمّه المنكوبة، التي تخلّت عن ابنتها ريتا، والتزامها بسيما كتعويض لها.

لم يقل واهان لا، ولم تقل سيما شيئاً، كانت صامتة ومرتبكة، لم تنم تلك الليلة، وهي تفسّر كلّ حركة أو تصرّف أو كلمة قيلت، فقد اكتشفت فجأة مكانتها في هذا البيت، وما يربطها بأفراده.

لم يفاجأ آفو بالخبر، قال إنّه يعرف هذا قبل أن يتوصّلا إليه، ولا يريد الدخول في التفاصيل، لكنّه تلمّس انسجام واهان وريتا أكثر من مرة، حين يتحادثان أو يعملان، أو حين يناديه لأمر ما، متجاهلاً وجود أمّه، أو حين يحتجّ على تعليقات آفو قائلاً:

- ما بك يا آفو؟ على أمّك أن ترتاح.

ما زال آفو وسيما يتصادمان، كما فعلا منذ مراحل الطفولة، على عكس علاقة كلّ منهما مع واهان، الذي ترتّب عليه أكثر من دور، الأب والأخ والمسؤول، أمّا آفو فبقي الطفل المشاكس الضعيف، الذي لا يُردّ له مطلب.

لم تتراجع حالة آفو المرضية، فكانت تنتابه في فترات متقطّعة، وينشغل الجميع به، خصوصاً آرشا التي تدين نفسها بسبب محاولاتها اللامجدية لإسقاطه.

حين شببتُ عرفت أموراً كثيرة مرّت على البلاد، أهمّها أنّ المنطقة تحرّرت من الاحتلال، وأنّ ما بقي من أرمن الأناضول يعيشون ككلّ المواطنين العرب، في سورية ولبنان والعراق والأردنّ، كما يعيشون في بقيّة أنحاء العالم.

ما عرفته أيضاً أنّ طلعت وجمال ماتا اغتيالاً مع غيرهما من الباشوات على يد شبّان أرمن، حدث هذا في برلين واستنبول وروما وغيرها.

ضحك عمّي آفو، فقتل جمال باشا حدث أمام مركز شرطة مدينة تفليس بين كابول واستنبول، في شارع صولولاك، قرب شارع بطرس الكبير وساحة يريفان.

- هل تعرفين من قتلهم يا لورا؟

ميساك، وآرام، وأرشاوير، وسيروب، وبيدروس، وغيرهم.

كان لأرداشيس أخت تدعى آني، قتلها جمال باشا وهي في عمر السادسة عشرة، فقال له قبل أن يرديه قتيلاً، تذكّر يا باشا أورفة، تذكّر دير الزور، واستغاثة النساء الأرمنيات.

ما زال عمّي يضحك، بينما يصرّ أبي عل النصيحة:

- ما لنا ولهذا يا لورا!

عرفت أيضاً أنّ حرباً عالمية ثانية حدثت، لكنّ ما لا أعرفه هو هل ستتجدّد الأطماع في العالم ذات يوم؟

- قلت لك ما لنا ولهذا يا لورا؟

أرى الخوف يتجدّد في أعماق أبي، فكلّما هاجمته الذكرى يهرب إلى النسيان، فيرى السوط بيد الدركي ملوّحاً، أو يسمع صداه فوق الأجساد، ربّما لم ينسَ أنين النساء، أو ذلّ الرجال، أو ضعف الأطفال، وربّما اكتشف أبي في تلك الأيام كيف يتحوّل الإنسان إلى كائن لا علاقة له بالبشر، يصبحان كخطّين يجمع بينهما الشكل، لكنّهما لا يلتقيان.

بالنسبة إليّ، فقد ولدت في عام الجلاء، في فمي ملعقة من ذهب، لي أبوان رائعان وجدّة تحنو عليّ، ولي عمّ متفرّغ للقراءة، كان في مرحلة التخصص الأخيرة لطبّ العيون.

بالنسبة إلى جذوري، فأنا أرمنية الأصل، عربية الجنسية، أحمل الولاء لبلدي الذي يحتضننا منذ عقود طويلة. عشت في ظروف متعادلة مع رفاق دراستي، وفي مجتمعي، ولم أشعر بالغبن منذ أن وعيت على الحياة، وحين أنهيت دراسة علم التاريخ كنت أجيد أكثر من لغة إلى جانب العربية، وهي الأرمنية والفرنسية وقليل من الإنكليزية.

كما حدثت أمور قبل ولادتي حدثت أمور بعدها، فقد غاب المحتلّ عن المنطقة، غير أنّ أموراً كثيرة ما زالت تظهر بين الفترة والأخرى، أمور لها علاقة بتقويض الراحة والسكينة في البلاد، كان أكثرها غرابة ما حدث

لعرب فلسطين، إذ يشبه بطريقة أو بأخرى ما حدث لأرمن الأناضول.

لكنّ جدّتي تصرّ، فما حدث للأرمن لا يعادله حدث. يضحك عمي آفو، فقد يكون هذا صحيحاً. لكنّ جدّتي لا تمزح، تقول هذا وتبتسم كعادتها. كنت أدرك أنّها ستحتفظ حتّى ساعة الرحيل بأحلامها الجميلة، فهي تنتظر مجيء زوجها نازار، وتأمل رؤية أخيها أو أختها، وتنتظر معجزة تتم بلقاء أمّها أو أبيها، لكنّها ماتت وتركت أحلامها في رؤوسنا وبين جدران بيتنا.

ما زلت أراها كيفما تحرّكتُ، في كلّ زاوية من البيت الجميل، بهدوئها ونظرتها الحزينة، بشرودها حين تهدأ، وتدفّقها حين تتذكّر، وأكثر ما يحلو لي هو استعادة حكاياتها، استعادة صور من ماضيها القريب والبعيد، فتخلق أمام عينيّ عالماً غريباً، هو من خيال لا يصدّق، فتصبح جدّتي في عيني أهمّ من صنع الحكايا، وأكثرهم مقدرة على الخلق والإبداع.

لا أعلم إن كنت حزينة أو مبتهجة؟ أو هل ماتت جدّتي، أم أنّها لم تزل بيننا، وحين أحدّثها عن أحوالنا، يأتيني اعتقاد أنّها تسمعني وتُنصت إليّ، فهي تعرف أدقّ أمور حياتنا، تعرف أخبارنا، تفرح لفرحنا وتتألّم لآلامنا، وأدرك على غفلة أنّها بيننا، وأنّنا نستطيع مشاهدتها أو التحدّث إليها وقتما نشاء.

تفاقمت حالة عمّي الصحّية، وأُرجعت الأسباب إلى سوء العناية بمرض رافقه منذ الصغر، لكنّه لم يحزن،

ولم يستطع في الوقت نفسه إخفاء العوارض التي تسلّطت عليه، فبدا مستهتراً بكلّ ما يتعلّق بحياته، بالعمل ومتابعة أعراض المرض، وراح يخلق المبرّرات، ناهجاً السخرية والاستهزاء، فلا شيء يستحقّ التفكير أو التضحية، تتساوى الحياة والموت، ولا يعرف طريقاً لما هو فيه، سوى احتساء الخمرة، التي تحوّله إلى رجل قنوع ومستسلم، ومتقبّل للآتي.

لكنّ ذكاء عمّي بقي متوقّداً، وحين يعبّر عن فكرة أو رأي يُشعرنا أنّه أقرب إلى الهذيان، وذات مرة زعم أنّه لم يُرد النزول من بطن أمّه، فقد بقي في أحشائها شهرين إضافيين، ويحسب يوم التهجير ويوم الولادة. أمّا أمّي التي كانت أكثرنا اقتراباً منه، وتعرف كيف يفكّر ولماذا، فقالت إنّها تخاف على آفو، فهو يخطّط لأمر ما. أمّا أنا فلم يشغلني خوف أمّي، فقد شغلني ما يصدر عنه، فألتقط الكلمات التي تخرج من بين شفتيه الواهيتين، وأبحث عن ترابط يجمع بينها، فأرى الظلم والقهر، والمذابح والمجازر، والتاريخ يغصّ بالأحزان، وكلمات عمّي تغصّ بالوقائع والأسماء، اتّهامات ومخططات وفجائع لا تنتهي.

- ما يدهش عمّك لا يدهشني، فالجرائم لم تنته منذ الجريمة البشرية الأولى، مروراً بالآلاف منها، وما حدث لأرمن الأناضول يشابه ما حدث ليهود أسبانيا، وما حدث للعرب الفلسطينيين يشابه ما حدث للأرمن واليهود.

ضحك عمّي بسخرية، ونهض يمازح أبي ويقول ردّاً على تعليقاته:

- مع اختلاف في أمر هامّ، فليس من العدل وقد تنعّم اليهود بالخير في ظلّ العرب، موقف العالم من القضية الفلسطينية، وموقف اليهود بشكل خاصّ منها.

- كان هذا قبل بلفور وقبل تحقيق الوعد، وقبل تقسيم البلاد، وقبل وقبل.

لم أنم تلك الليلة، كنت خائفة من مجهول قادم، ومن اعتقاد بأنّ الظلم باقٍ، وأنّ ما جرى عبر التاريخ قد يتجدّد بين لحظة وأخرى. تمنّيت في تلك اللحظة أن يتوقّف الزمن، أن تهدأ الأرض، أن تتوقّف الحركة والحياة، فلربّما تنتهي الشرور في هذا العالم الجميل.

***

كأنّني تلك الطفلة، وكأنّ جدّتي بوجهها المشرق، وجديلتها الرمادية ويديها المعروقتين تبتسم لي. كانت تدثّرني بالشال الصوفي الذي حاكته ذات شتاء، وتروي الحكايا كما تفعل دائماً. كانت تمسح جبيني، ولم تكن كفّها باردة، وربّما كان جلدي حارّاً، وقد سمعت ضجيجاً حولي، وقرقعة ماء في إناء نحاسيّ، شممت رائحة الخلّ، وأحسست بيد تمسّد وجهي وجبيني وعنقي.

كانت أمّي خلال ذلك تروح وتجيء، أحضرت في المرّة الأولى كوباً من العصير، وفي الثانية كوباً من النعناع الدافئ، أمّا آخر مرّة فركعت تصلّي، سمعتُ

نداءاتها إلى الله، وإلى العذراء مريم. كانت تنتظر عودة أبي بصحبة الطبيب الذي تأخّر، وهي تتمتم بين الفينة والأخرى: إنّه كابوس.

عصرت جدّتي قطعة القماش المبلّلة، ومسحت وجهي قليلاً، ثمّ تركتها فوق جبهتي، قالت:

- أصدّقك يا لورا.

يجب أن يصدّقني كلّ من أمي وأبي وعمّي، لم يكن كابوساً، كان حقيقة تشبهني تماماً، كما أنا الآن، أسقط في دهليز، يأخذني عبر دوائره المتراصّة، الرمادية المشوبة بالأسود، إلى لا مكان، فأنا في نقطة ما، أتوسّط تلك الدوائر، فتتّسع بي وتحملني كإعصار متنقّل من مكان إلى مكان.

كانت الصور محفورة في ذاكرتي، مرتسمة أمام عيني، أمّا الأحداث التي عشت فيها كحقيقة فما زالت تترسّخ في عقلي. تمنّيت في تلك اللحظة أن أبقى طفلة، ألاّ أكبر، وأن تستمرّ حكايا جدّتي كصور لا تمتّ إلى الحقيقة، أو كما زرعتها في رأسي الصغير دون ألم أو دموع، دون قلق أو موت، وأبقى تلك الطفلة، وتبقى جدّتي حيّة لا تموت.

مددت يدي ألامس طرف ثوبها المورّد، فعبقت رائحة عطر مختلف الألوان، وكانت هي منهمكة بسحب حرارة جسدي، بطريقتها الجادّة، بينما تتخلّل تنهّدات أمي أسئلةُ الطبيب الذي حضر توّاً.

سمعت مفردات لها علاقة بالعمر والحالة النفسية. كان عمري يقارب العاشرة، وقد غمرتني الطمأنينة قبل النوم، لأستيقظ على ما أنا به.

بذل الطبيب كلّ جهده لإخراجي من الصمت الذي غرقت فيه، والحقيقة أنّني لم أصطنع تلك الحالة وكل ما أنا فيه، هو أنّني أحمد الله أنّ جدّتي لم تمت، وأنّني خرجت من كلّ عذاباتي، لتنتهي معاناتي في لحظة استيقاظي.

- يجب أن تنام.

لم أقوَ على الصراخ، كان عليّ أن أقول: لا لن أفعل.

كبرت في ليلة واحدة عشرات السنين، لم أكن خائفة من الماضي، وإنّما خفت من المستقبل، فهل ستموت جدّتي؟ هل سينتحر عمّي آفو؟ هل ستتجدّد المجازر ذات يوم؟ هل سيُقتل البشر لأبسط الأسباب؟ هل وهل وهل؟

كانت أمّي التي سقطت قرب السرير، تتساءل عن سبب هذياني، تذكّرت وجهها الحزين وهي تزور قرية مرقدة في الشمال السوري، قرب مدينة دير الزور، هنالك وهي تشاهد الهياكل المتبقية للأرمن، ندبت أمّها وأخويها اللذين لا تعرفهما، وبكت أباها الآغا الذي عاش في ذاكرة نقلتها لها آرشا ذات يوم.

كان خفقان قلبي يشتدّ، وكنت عروساً تزيّن معصمي إسوارة جدّتي، بينما أهرول خلف أبي الذي دفعه الفضول إلى مقابلة المرأة التي تشبهه، والتي تعيش في

أحد مصايف لبنان الجميل، حين التقاها قالت إنّ اسمها ريتا واسم أمّها آرشا وأباها يُدعى نازار، أمّا أخوها التوأم فيدعى واهان.

أردت أن أتكلّم، أن أنقل إلى جدّتي ما حدث، فذاكرتها تغصّ بالغائبين، وهي تنتظر لقاء الأحبّة، ربّما لأنّها لا تؤمن بالموت. كانت تمسح وجهي وتبتسم، وكنت أتلقّى لمساتها وقلبي يخفق. كان الطبيب أثناء ذلك يبتعد، بينما شعرت بنعاس شديد، ولا أدري ما الذي حصل، هل كنت لأنهض أو أغفو من جديد؟

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

في محنة الأرمن المساقين، نساءً وأطفالاً وشيوخاً، على دروب المنافي القاتلة، تكافح آرشا للبقاء على قيد الحياة مع طفليها التوأم. الجوع والعطش والخوف والمرض والعذاب والموت المخيّم، كلّ ذلك يدفعها إلى إنقاذ حياة طفلتها بتسليمها إلى سيّدة عربية. والأسباب نفسها تدفع إلى حضنها طفلة زوجة الآغا الأرمنية التي خطفت الكوليرا ابنيها وقتل الأتراك زوجها. ولا يلبث أن ينضمّ إلى حضن آرشا طفلها آفو، ثمرة أحشائها بعد تعرّضها للاغتصاب. لورا التي ولدت في حلب بعد سنوات من انقضاء المحنة، تستعيد من حكايات جدّتها آرشا، وذكريات والدها وعمّها، ومن الكتب والوثائق، مشاهد تلك المحنة الرهيبة ووقائعها.

قيل في الكتاب

«أبدعت المؤلّفة في الوصف المؤلم». جريدة الحياة «نجحت المؤلّفة في تصوير الوقائع بدقّة، في بناء روائي متكامل، وبحرفية عالية في الأسلوب». جريدة النهار«

نبذة عن المؤلّفة

ماري رشّو كاتبة وروائية سورية مقيمة في اللاذقية وعضو في اتحاد الكتّاب العرب. نالت جائزة أصدقاء الثقافة في سوريا عن روايتها «هرولة فوق صقيع توليدو»، وجائزة سيناريو عن فيلم للأطفال «لن أشعل النار ثانية» في مهرجان القاهرة الدولي لسينما الطفل.